

ڪامل ڪيلاني

اُشهر القصص

روبنسن ڪريڊو



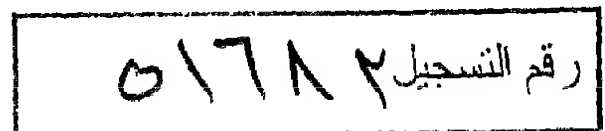
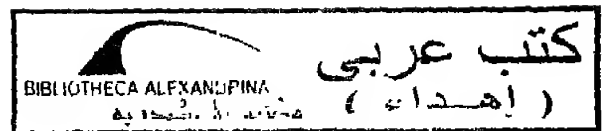
NC

Ch
823

ڪيل
ر



دارالمعارف



اهداءات ٢٠٠٢

أ/ رشاد كامل الخيلانى

القاهرة

كامل كيراني

أشهر القصص

روبنسن كروزو

الطبعة الثانية عشرة



دار المغرب

ch

800

2A

c 2

مقدمة بقلم جان چاك رُسُو

« ما دُمنا لا نَسْتَعْنِي عَنِ الْكُتُبِ ، ولا مَعْدَى لَنَا عَنِ الْمُطَالَعَةِ ؛ فَثَمَّةُ كِتَابٍ هُوَ عِنْدِي أَتَمُّ ذُخْرٍ فِي التَّرْبِيَةِ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الطَّبِيعِيَّةِ . وَسَيَكُونُ أَوَّلَ كِتَابٍ يَقْرَؤُهُ طِفْلِي « إِمِيل » . وَسَيُصْنَعُ - وَحْدَهُ - كُلَّ مَكْتَبَتِهِ . وَسَيَرَى فِيهِ - عَلَى الدَّوَامِ - مِنَ التَّرَايَا الْبَاهِرَةِ مَا يَدْفَعُهُ لِإِحْلَالِهِ أَسْمَى مَكَانٍ سَيَنْدُهُ .



وَسَيَظَلُّ هَذَا الْكِتَابُ مُعَذَّةً فِي هَذَا الْبَابِ ، وَيَظَلُّ كُلُّ مَا عَدَاهُ - مِنْ كُتُبِ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ - حَوَاشِي وَتَقْلِيقاتٍ عَلَيْهِ . فَهُوَ أَصْدَقُ مِقْيَاسٍ نَقِيسُ بِهِ مَدَى نَجَاحِنَا فِي الْحَيَاةِ ، كَمَا نَقِيسُ عَلَيْهِ أَحْكَامَنَا الَّتِي نُصْدِرُهَا . وَسَيَظَلُّ - كَذَلِكَ - مُتَجَدِّدَ الرُّوْعَةِ وَالْأَثَرِ فِي كُلِّ وَقْتٍ يَقْرَؤُهُ ، مَا دَامَ لَنَا ذَوْقٌ لَمْ يَتَغَيَّرْ إِلَى الْفَسَادِ .

« جان چاك رُسُو »

تُرَى مَا هُوَ هَذَا الْكِتَابُ إِذَنْ ؟

لَعَلَّهُ كِتَابُ « أَرِسْطُو » أَوْ « بَلِين » أَوْ « بُوْفُون » !
كَلَّا ، لَيْسَ كِتَابُ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ ، بَلْ هُوَ كِتَابُ « رُوْبِنْسَن كَرُوزُو » .

جان چاك رُسُو

المآمة

لم ومعيناً في اقتباس نظرية ربط بمض المواد الدراسية بمض .

وقد ولد مؤلف هذه القصة « دانييل ديفو » بمدينة « لندن » عام ١٦٦١ م ، ومات في ٢٦ من إبريل سنة ١٧٣١ م . وكان مشهوراً بالصدق والأمانة .

وكان اسم أبيه « جيمس فو » .

وقد ظل اسم المؤلف - منذ نشأته إلى أن بلغ الأربعين من سنه - « دانييل فو » ، ثم تغير بعد ذلك ؛ فأطلق عليه الناس اسم « دانييل ديفو » . وكان لهذا التغير قصة طريفة ؛ هي أنه كان متعوداً أن يعضى بحوته ومقالاته بالحرف الأول من اسمه ويردفه بالاسم الثاني منه كاملاً هكذا : « د . فو » ؛ فتعود الناس أن يتطلقوا باسمه هكذا : « ديفو » . ثم غلب ذلك الاسم عليه ، لذيمه وخفته على السمع ورجال موسيقاه ؛ فأصبحوا يسمونه منذ ذلك الحين « دانييل ديفو » .

وليس لدينا أبناء وثيقة عن نشأة هذا الكاتب النابغة ، كما أننا لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته الأولى . وغاية علمنا أن أباه كان قصاباً يعيش في « لندن » ، وأنه قد عني بتعليم ولده وتنشيطه العناية كلها ، ولم يأل جهداً في تمهده بالدرس والتحصيل على خيرة معلمي عصره ، حتى إذا بلغ الرابعة عشرة

تمد قصة « روبنسن كروزو » من أشهر القصص العالمية التي كتب لها الخلود . وقبلما نجد في - أو فتاة - من يتكلم الإنجليزية في أي بلد من بلاد العالم ، لم يقرأها في شغف وسرور لا حد لها ، وهو مهتج بتلك القصة الفاتنة ، التي تشرح له كيف غرقت السفينة ، ومات من فيها ، ونجا واحد بمفرده من ملاحبها ، وعاش في جزيرة مقفرة لا أنيس بها . وكثيراً ما يسأل الطفل أبويه عن دقائق القصة وتفصيلاتها .



« دانييل ديفو »

وقد اتخلها رجال التربية أساساً لتثقيف الأطفال ، لأنها تمودهم الجهد والدأب ، وتنشئهم على الحياة الإستقلالية أحسن تنشئة . وقد جعلوها أساساً لنظام الكشافة ، كما اتخلوها مرشداً

من عمره ، أرسل إلى إحدى جامعات « لندن » ليتم ثقافته . وهكذا تفقه المؤلف في الدين ، وبرع في علوم الرياضة والجغرافية والتاريخ وما إلى ذلك ، كما أتقن خمس لغات . وقد وفق إلى كتابة كثير من البحوث الرائعة : من دينية واجتماعية وإصلاحية وسياسية ، فكانت سبباً في إذاعة مواهبه ونبوذته بين معاصريه .

* * *

وكان عصره عصر اضطرابات وثورات . وقد اشترك في بعضها ، وعرض نفسه لأخطار القتل والسجن والتنكيل . فأثر الحرب إلى « إسبانيا » ، حيث استخفى عامين ، ثم عاد إلى وطنه . وساعده الحظ ، فتزوج في « لندن » . واشتغل بالتجارة ، فلم يكتب له النجاح فيها ؛ لانصرافه عنها إلى الكتابة والبحث . ولم تمر عليه سبع سنوات حتى أرققه الدين الذي أربى على سبعة عشر ألف جنيه . ولكن ثقة دائنيه به قد ساعدته - فيما بعد - على أداء هذا الدين الجسيم .

ثم رحل إلى « برستول » ، حيث أنشأ صحيفة باسمه ، وكتب فيها كثيراً من اقتراحاته الاقتصادية المثمرة ؛ فأخذت بها بلاده ، وأقرت آراءه فيها . وكان يحث مواطنيه على إنشاء الطرق ، والمصارف الاقتصادية للفقراء ، وما إلى ذلك من تنظيم الخطط الناجسة لتعليم جمهرة الشعب .

وكان لاقتراحاته تلك أكبر أثر في نفس « بنيامين فرانكلين » ، الذي قرر - صراحة - أنه استفاد أكبر فائدة من البحث الذي سبقه إليه « ديفو » منذ عدة سنوات ، وقد حمد الحظ السعيد الذي قاده إلى هذا البحث في مكتبة أبيه .

وقد اتصل بالملك « وليم الثالث » ، ودافع عن سياسته ، فذاع صيته .

ولما مات « وليم الثالث » آلمه موته ، وعده خسارة فادحة . وانتهز خصومه الفرصة فتألبوا عليه ونكلوا به . ثم عطفت عليه الملكة « حنة » ، بعد أن توسط له أحد الوزراء ؛ فظلت تشمله برعايتها حتى ماتت .

كيف اشتهر ديفو ؟

أما شهرة « ديفو » العظيمة ، فكان بدؤها قصيدة نظمها في الدفاع عن « وليم أورنج » : ملك إنجلترا حينئذ ، رداً على قصيدة نظمها أحد الشعراء في التهمك به ، فأكسبته عطف الملك وحب الشعب والحكومة ، وأحرز منصباً جليلاً في عام ١٦٩٤ م .

وأي إلا أن يزعم وقته بالعمل ، فأنشأ مصنع طوب كبيراً ، ولكنه لم يوفق فيه لكثرة أعماله . ثم مات « وليم أورنج » في عام ١٧٠٢ م ، ففقد « ديفو » بموته أكبر نصير ومشجع له .

* * *

وفي عهد الملكة « حنة » لقى « ديفو » كثيراً

من العنت والإرهاق ؛ فتأول خصومه في بعض مقالاته ما شاء لهم الحقد والهووى . وانتهت محاكته بسجنه ، وتغريمه غرامة فادحة في أواخر يوفية سنة ١٧٠٣م .

وقد شهر به خصومه ، ولكن ذلك لم يقلل من إعجاب منصفيه الذين عرفوا نبل قصده وشرف غايته . وقد كتب في مجته عدة مقالات نفيسة . ولما خرج من السجن أنشأ صحيفة أخرى نالت أكبر النجاح ، وظلت تصدر إلى عام ١٧١٣م . وكانت أول أمرها تظهر مرة في الأسبوع ، فرتين ، ثم ظلت تصدر تباعاً ثلاث مرات في كل أسبوع .

وقد لى « ديفو » كثيراً من الاضطهاد والعنت ، وتمرضت حياته للقتل ، ثم عاد بعد ذلك إلى خدمة الحكومة . وفي عام ١٧١٤م فصل من عمله ، وعاد إلى التمرض للإعانات مرة أخرى . وتألب عليه أعداؤه ، ودبروا له كثيراً من الدسائس والمؤامرات ، ورموه بالأنانية . فأنشأ صحيفة جديدة أسماها : « الدعوة إلى الشرف والعدل » . ودافع عن مبادئه وأغراضه دفاعاً مجيداً . وكانت هذه الصحيفة خاتمة حياته السياسية . ثم ساءت صحته وألح عليه المرض ، ولكن بنية جسمه القوية ساعدته على التغلب على مناهبه وأمراضه ، فاسترد صحته بعد قليل .

وقد ألف كثيراً من البحوث والمقالات والرسائل في الدين والحكومة والوطن . ثم ألف في أغريات أيامه نخبة من الكتب الشائقة التي أقبل عليها

الجمهور أيما إقبال . هو قد أدرك بفطرته تعلق الجمهور بالقصص ، وشدة تأثره بها ، وتهانته عليها ؛ إذا كانت صادقة الوصف والتحليل ، دقيقة في تصوير الحياة . فنال بقصصه نجاحاً عظيماً ؛ لأن قصته كانت تحلق دائماً في جو محمى خلاص يزينه الصدق والدقة والإخلاص .

وفي عام ١٧١٥م ألف كتاب « معلم الأسرة » فنال تسطاً كبيراً من النجاح والديور ، وأقبل عليه الجمهور . ثم ألف كتابه الخالد « روبنسن كروزو » وهو أشهر قصصه . وقد ظهر فيه أثر القصة العربية الخالدة : « حى بن يقظان » . ونشر القسم الأول منه في أبريل سنة ١٧١٩م ، وكان حينئذ قد قارب الستين من عمره .

وقد لى هذا الكتاب من الإقبال والشهرة ما لم يكن يحلم به « ديفو » ، وأصبح حبيباً إلى كل نفس . ومن العجيب أنه لى كثيراً من المناصب والصعوبات في البحث عن ناشر ينشره له في أول الأمر . وليس في قدرتنا أن نعلم كم ربح من كتابه ، وإن كنا نستطيع أن نعرف مدى نجاحه العظيم ، فقد نفدت منه أربع طبقات متوالية في أربعة أشهر متعاقبة . وبعد زمن قليل ظهر القسم الثانى من القصة ، فلقى من الرواج والنجاح والإقبال مثل ما لى سابقه . وهكذا ظفر « ديفو » بال شهرة من طريق هذا الكتاب ، ولم يظهر بها عن طريق بحوثه السياسية والدينية الكثيرة ، على أن له عدة

مؤلفات أخرى .

وقد سار على نهجه بعض الكتاب ، ولم يقدر لهم الفوز ولم ينجح من بينهم غير كتاب « روبنسن سويسرا » أو « الأسرة السويسرية » الذى ألفه « رودلف نيس » أستاذ الفلسفة فى جامعة « برن » . وقد اختار لقصته أسرة عددها ستة أشخاص ، ينجون من الفرق ؛ فتألف منهم أسرة سميدة متعاقفة ، يظللها الوثام والحب ؛ فتتقلب على العقبات والمصاعب .

* * *

على أن « ديفو » له عدة مؤلفات أخرى ، نذكر منها كتابه عن « الطاعون الهائل » الذى انتشر عام ١٦٦٥ م . ولكن لم يرزق أى كتاب من

كتبه حظاً من الخلود كما رزقت قصة « روبنسن كروزو » . ولقد كانت كتبه شائعة جذابة ، ولكن ليس لها سحر هذه القصة ، وروعة هذا الملاح الذى كتب له أن تمرق سفينته وأن يعيش فى جزيرة مقفرة .

* * *

وقد ساعده ما ربحه من المال - لقاء كتابته - على أن يقضى بقية حياته مستريح البال ، بعيداً عن الفاقة . فابتنى قصرأ فاخراً ، واشترى عربة وجياداً ، وعاش عيشة راضية . ولكن صفوه لم يدم ؛ فقد نهكه مرض النقرس ، وضايقه عقوق ولده ؛ فعجل ذلك بموته لما استولى عليه من الغم . ودفن فى « لندن » فى الرابع والعشرين من أبريل سنة ١٧٣١ م

دانييل ديفو

تمهيد

مَقَدِّمَاتُ السَّفَرِ

١ - أُسْرَةُ « رُونِسَن »

كَانَتْ وَلادَتِي فِي عَامِ ١٦٣٢ م بِمَدِينَةِ « يُرُوك » الَّتِي اتَّخَذَهَا أَبِي
مَوْطِنًا ثَانِيًا لَهُ ، بَعْدَ أَنْ كَسَبَ مِنَ التَّجَارَةِ مَكْسِبَ طَائِلَةٍ ، وَجَنَى^(١)
ثَرْوَةً عَظِيمَةً ، كَفَلَتْ لَهُ عِيشَةً رَاضِيَةً .

وَكَانَتْ أُسْرَتُنَا مُؤَلَّفَةً مِنْ : وَالِدِي الشَّيْخِ ، وَأُمِّي الْمَجُوزِ ، وَثَلَاثَةِ
أَبْنَاءٍ كُنْتُ أَصْغَرَهُمْ سِنًا .

وَقَدْ قُتِلَ شَقِيقِي الْأَكْبَرُ فِي مَعْرَكَةِ حَرْبِيَّةٍ ، وَسَافَرَ الشَّقِيقُ
الْأَوْسَطُ إِلَى حَيْثُ لَا نَدْرِي ؛ فَانْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ ، وَلَمْ نَعْلَمْ عَنْهُ
- بَعْدَ ذَلِكَ - شَيْئًا .

(١) جَمْعٌ .

وَعَنَى أَبِي عِنَايَةً كَبِيرَةً بِتَعْلِيمِي ، وَنَشَأَنِي أَحْسَنَ تَنْشِئَةٍ ، وَزَوَّدَنِي
بِكَثِيرٍ مِنْ نَصَائِحِهِ الثَّمِينَةِ ، وَاخْتَارَ لِي أَنْ أَتَفَقَّهُ فِي الْقَانُونِ^(١)
وَلَسِكُنْتِي كُنْتُ شَدِيدَ الزُّهْدِ فِي دَرْسِهِ ، وَكَانَتْ نَفْسِي مُنْصَرِفَةً عَنْ
ذَلِكَ كُلِّهِ .

٢ - حُبُّ السَّيَاحَةِ

هِيَ أُمْنِيَّةٌ وَاحِدَةٌ ، طَالَمَا تَمَنَّيْتُهَا ، وَرَغْبَةٌ شَدِيدَةٌ ، طَالَمَا وَدِدْتُ
تَحْقِيقَهَا . فَقَدْ شَغَفَتْ^(٢) بِالسَّيَاحَةِ وَرُكُوبِ الْبَحَارِ ، وَتَمَلَّكَ
عَلَى حُبِّ السَّفَرِ كُلِّ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْنِي إِلَى لَوْمٍ أَوْ نَصِيحَةٍ .
وَكَانَ إِرَادَةُ قَاهِرَةً قَدْ هَيَّجَتْ^(٣) عَلَى نَفْسِي ، وَغَلَبَتْهُ عَلَى أَمْرِي ؛
فَلَمْ أَصْنَعْ إِلَّا نَصِيحَةَ أَبِي ، وَرَجَاءَ أُمِّي ، وَالْحَاحِ أَقَارِبِي ؛ حَتَّى يَنْسُوا
مِنْ هِدَايَتِي ، لِمَا رَأَوْهُ مِنْ عِنَادِي وَإِصْرَارِي .

٣ - نَصِيحَةُ وَالِدِي

وَكَانَ أَبِي شَيْخًا مُجَرَّبًا حَكِيمًا ، وَكَُنْتُ أَحِبُّهُ وَأَجُلُّهُ .

(١) اتعلمه . (٢) تعلق قلبي . (٣) تسلطت .

وَذَا صَبَاحٍ ، دَمَانِي إِلَى غُرْفَتِهِ — وَكَانَ الشَّلَالُ قَدْ أَعْجَزَهُ عَنِ الْمَشْيِ —
وَقَالَ لِي وَقَدْ بَدَتْ عَلَى وَجْهِهِ
أَمَارَاتُ الْغَيْظِ وَالْأَلَمِ :



« أَيْ رَغْبَةً مَجْنُونَةٍ تَدْفَعُكَ
إِلَى مُغَادَرَتِنَا ، وَتُبْعُضُ إِلَيْكَ
الْبَقَاءَ مَعَنَا ؟ وَمَاذَا يُضْجِرُكَ^(١)
مِنْ حَيَاةٍ هَنِئْةٍ وَعَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ،

فِي بَيْتٍ نَشَأْتَ فِيهِ ، وَوَطَنٍ أَلْفَتْهُ وَأَحْبَبْتَهُ ؟ وَمَا بِالْأَكْ ثُوْمُرُ^(٢)
الشَّقَاءِ عَلَى الرَّاحَةِ ، وَتُعَرِّضُ نَفْسَكَ لِأَخْطَارِ الْبَحْرِ وَمَتَاعِبِ السَّفَرِ ؟
لَقَدْ يَسِّرَ اللَّهُ لَكَ سَبِيلَ السَّعَادَةِ ، وَهَيَّا لَكَ عَيْشَةً رَاضِيَةً . فَمَا أَجْدَرُكَ^(٣)
أَنْ تَرْضَى بِمَا قَسَمَ اللَّهُ ، وَتَحْمَدَهُ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي اخْتَصَّكَ
بِهَا ! وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ ، وَأَيَّدْتَ إِلَّا تَحْقِيقَ
رَغْبَتِكَ الْمَجْنُونَةِ فِي السَّفَرِ ، أَغْضَبْتَنِي ، وَأَغْضَبْتَ أُمَّكَ ، وَأَغْضَبْتَ اللَّهَ
— سُبْحَانَهُ — الَّذِي أَمَرَكَ بِطَاعَةِ آبَوَيْكَ . »

(١) يضايقك . (٢) تختار . (٣) أحسن لك .

٤ - دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ

وَوَظَلَّ أَبِي يَمْنُفٌ^(١) فِي كَلَامِهِ تَارَةً ، وَيَلِينُ تَارَةً أُخْرَى ،
وَيَضْرِبُ لِي الْأَمْثَالَ . وَلَمْ يَدْعُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ النُّصِيحِ إِلَّا سَلَكَهَا .
ثُمَّ خَتَمَ حَدِيثَهُ قَائِلًا :

« وَأَذْكُرُ - يَا وَلَدِي - أَنِّي فَقَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَكْبَرَ الَّذِي قُتِلَ
فِي الْحَرْبِ ، وَقَدَدْتُ شَقِيقَكَ الْأَوْسَطَ الَّذِي أَصَرَ عَلَى السَّفَرِ ، كَمَا تُصِرُّ
عَلَيْهِ الْآنَ ؛ وَقَدْ انْقَطَعَتْ أَخْبَارُهُ عَنَّا إِلَى الْيَوْمِ ، فَمَا تَعْلَمُ : أَحَىُّ هُوَ
أَمْ مَيِّتٌ ؟ وَأَصْبَحْتَ لَنَا - بَعْدَ أَخَوَيْكَ - كُلُّ رَجَائِنَا وَعَزَائِنَا .
فَإِذَا أَصْرَرْتَ عَلَى عِنَادِكَ ، وَأُيِّنْتَ إِلَّا السَّفَرَ ؛ فَلَنْ يُبَارِكَ اللَّهُ لَكَ ؛
وَلَنْ تَلْقَى - فِي سَفَرِكَ - إِلَّا الْغَنَاءَ وَالشَّقَاءَ . »

• • •

وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ تَكْهِنًا^(٢) صَادِقًا ، وَدَعْوَةً مُسْتَجَابَةً ؛
فَقَدْ شَقِيتُ - بِعِنَادِي وَإِصْرَارِي^(٣) - شَقَاءَ لَمْ يَلْقَهُ أَحَدٌ قَبْلِي .

(١) يَشْتَدُّ . (٢) إِحْبَارًا بِالْغَيْبِ . (٣) عَزَمِي الثَّابِتُ .

٥ - عُدُولُهُ عَنِ السَّفَرِ

وكانَ صَوْتُ أَبِي مُتَهَدِّجًا^(١) ، ودُمُوعُهُ تَنَحَدِرُ^(٢) مِنْ عَيْنَيْهِ .
وقَدِ اشْتَدَّ أَلَمُهُ حِينَ ذَكَرَ لِي مَوْتَ شَقِيقِي الْأَكْبَرِ ، واتَّقِطَاعَ أَخْبَارِ
شَقِيقِي الْأَوْسَطِ .

وكانَ يَتِمَثَّلُ لِي حَنَانُهُ وَعَظْفُهُ فِي كُلِّ كَلِمَةٍ يَنْطِقُ بِهَا . وَلَمْ يَكُنْ
فِي وَسْئِي أَنْ أَخَالَفَ لَهُ نَصْحًا بَعْدَ ذَلِكَ ؛ فَوَعَدْتُهُ بِالْعُدُولِ عَنِ السَّفَرِ .
وَعَقَدْتُ عَزْمِي^(٣) عَلَى الْبَقَاءِ فِي وَطَنِي ، نَزُولًا عَلَى حُكْمِهِ ، وَطَاعَةً لِأَمْرِهِ .

٦ - تَقْضِي الْعَهْدِ

وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ مَلَّوَدْتَنِي رَغْبَةٌ قَاهِرَةٌ فِي السَّفَرِ ، وَحَيْنٌ شَدِيدٌ
إِلَى رُكُوبِ الْبَحْرِ فَتَسَيَّتُ مَا عَاهَدْتُ أَبِي عَلَيْهِ ، وَتَحَوَّلْتُ^(٤)
لِذَلِكَ حِيلَةً لَمْ أَوْفَّقْ فِيهَا . فَقَدْ رَأَيْتُ دَلَائِلَ الْإِبْتِهَاجِ بَادِيَةً عَلَى وَجْهِ
أُمِّي - ذَاتَ يَوْمٍ - فَوَجَدْتُ فِي ذَلِكَ فُرْصَةً سَانِحَةً لِلْإِفْضَاءِ إِلَيْهَا بِرَغْبَتِي
فِي السَّفَرِ ، وَاسْتِثْنَانِهَا فِيهِ . وَتَلَطَّفْتُ فِي شَرْحِ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَحْفَظُنِي^(٥)

(٣) بنيت إرادتي .

(٢) سقط .

(١) مرتعشاً .

(٥) تدفني .

(٤) اتخذت .

إِلَى السَّفَرِ لِرُؤْيَةِ الْبِلَادِ الَّتِي طَالَمَا سَمِعْتُ عَنْهَا . وَأُظْهِرْتُ لَهَا أَنَّ هَذِهِ
الرَّغْبَةَ قَدْ مَلَأَتْ نَفْسِي ؛ فَلَمْ أَعُدْ أَصْلَحُ لِإِدَاءِ أَيْ عَمَلٍ آخَرَ ، قَبْلَ
أَنْ أَظْفَرَ بِتَحْقِيقِهَا . وَخَتَمْتُ حَدِيثِي مَعَهَا قَائِلًا :

« وَأَعْلَمِي أَنِّي إِذَا عَجَزْتُ عَنْ الظَّفَرِ بِهَذَا الْإِذْنِ مِنْكَ وَمِنْ أَبِي ،
فَإِنِّي مُعْتَزِمُ السَّفَرِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ . وَلَا تَنْسَى أَنِّي قَدْ بَلَغْتُ الثَّامِنَةَ
عَشْرَةَ مِنْ عُمرِي ، وَأَصْبَحْتُ عَاقِلًا رَشِيدًا ، أَمْلِكُ أَمْرِي .
فَلْيَأْتِ أَرَى الْخَيْرَ فِي أَنْ يَأْذَنَ لِي أَبِي فِي السَّفَرِ ، »

٧ - غَضَبُ أَبِيهِ

وَمَا سَمِعَتْ أُمِّي مِنْ هَذَا الْكَلَامِ حَتَّى اشْتَدَّ غَضَبُهَا عَلَيَّ ،
وَقَالَتْ لِي :

« مِنْ الْعَبَثِ أَنْ تَتِمَادَى^(١) فِي إِقْنَاعِنَا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ الطَّائِشَةِ
الَّتِي لَا تَجُرُّ عَلَيْكَ إِلَّا الْوَبَالَ^(٢) . وَلَنْ يَسْمَعَ لَكَ أَبُوكَ بِأَنْ تُعْرِضَ
نَفْسَكَ لِلْهَلَاكِ . »

...

(١) تستمر . (٢) سوء العاقبة .

وما أَخْبَرَتْ أَبِي بِمَا اعْتَزَمْتُهُ ، حَتَّى أَشْتَدَّ أَلَمُهُ وَغَيْظُهُ ، وَقَالَ لَهَا :
 « يَبْدُو لِي أَنَّ الشَّقَاءَ مُقَدَّرٌ لِهَذَا الْوَلَدِ الْتَائِسِ . وَسَيَلْقَى فِي سَفَرِهِ
 مِنَ الْمَصَائِبِ وَالْأَهْوَالِ ، مَا لَا يَخْطُرُ لَهُ عَلَى بَالٍ . وَسَيَعْرِفُ أَنَّ
 مَا يَحُلُّ بِهِ مِنَ النَّكَبَاتِ هُوَ عِقَابٌ عَادِلٌ عَلَى مُخَالَفَتِهِ نَصِيحَةَ أَبَوَيْهِ .
 وَلَنْ يَسْمَعَ لِي ضَمِيرِي أَنْ أَشْرَكَهُ فِي تَسْهِيلِ أَسْبَابِ شَقَائِهِ . »

...

وَمَا انْقَضَى عَلَى عَامٍ — بَعْدَ ذَلِكَ — حَتَّى فَرَزْتُ مِنَ الْبَيْتِ ، وَقَدْ
 أَرْمَعْتُ^(١) السَّفَرَ ، بَعْدَ أَنْ عَجَزْتُ عَنِ الظَّفَرِ بِرِضَاءِ أَبَوَيَّ .
 وَكُنْتُ أَعْجَبُ لِتَشَبُّهِمَا^(٢) بِيَقَائِي مَعَهُمَا . وَلَمْ أَعْلَمْ — حِينَئِذٍ —
 مَا كَانَ يَنْبُوهُ لِي الْقَدَرُ مِنَ مَصَائِبَ وَوَيْلَاتٍ .

(١) قَرَرْتُ . (٢) تَمَلَّقَهُمَا .

أَهْوَالُ الْبَحْرِ

١ - أَوَّلُ سَيْتَمِرٍ

سَاقَتْنِي الْمُصَادَفَاتُ الْمَجِيئَةُ - ذَاتَ يَوْمٍ - إِلَى « هَلْ » ، وَلَمْ أَكُنْ أَفَكِّرُ - حِينَئِذٍ - فِي السَّفَرِ إِلَيْهَا ، وَلَا خَطَرَ لِي ذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَلَى بَالٍ . وَلَقِيتُ - فِي طَرِيقِي - أَحَدَ أَصْدِقَائِي ، فَحَيَّانِي وَحَيَّيْتُهُ . ثُمَّ عَلِمْتُ مِنْ حَدِيثِهِ أَنَّهُ عَلَى أَهْبَةِ السَّفَرِ ^(١) إِلَى « لَنْدَن » . وَدَعَانِي إِلَى السَّفَرِ مَعَهُ فِي سَفِينَةٍ أُبِيهَ ؛ فَرَأَيْتُهَا فَرَضَةً نَادِرَةً لِتَحْقِيقِ أُمْنِيَّتِي ، دُونَ أَنْ يُسَكِّفَنِي ذَلِكَ أَجْرًا . وَغَلَبَ عَلَيَّ حُبُّ الْبَحْرِ ، فَتَسَيَّتُ كُلَّ شَيْءٍ . وَلَمْ أَحْفَلْ ^(٢) بِإِذْنِ وَالِدِي لِي فِي هَذِهِ الرُّحْلَةِ ، وَلَمْ أَقْدَرْ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ . وَهَكَذَا رَكِبْتُ الْبَحْرَ ... وَمَا أَنْسَ لَا أَنْسَ ^(٣) ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي

(١) سَمِعْتُ لِلرَّحِيلِ . (٢) لَمْ أَمُتْ . (٣) إِنْ نَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ فَلَنْ أَنْسَ .

أَقْدَمْتُ فِيهِ عَلَى هَذِهِ الْمُجَازَفَةِ . فَقَدْ كَانَ أَشْأَمَ يَوْمٍ فِي تَارِيخِ حَيَاتِي ؛
إِذْ كَانَ فَاتِحَةَ عَهْدِ الشَّقَاءِ .

ذَلِكَ الْيَوْمُ هُوَ أَوَّلُ سِبْتَمْبَرِ عام ١٦٥١ م .

٢ - هُبُوبُ الْمَاصِفَةِ

وَمَا كَادَتْ السَّفِينَةُ تَنْخَرُ^(١) فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، حَتَّى رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ
تَضْطَجِبُ^(٢) وَتَتَمُفُّ^(٣) . وَلَمْ أَكُنْ رَكِبْتُ الْبَحْرَ قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ ؛
فَتَمَلَّكَنِي الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ ، وَأَخْسَسْتُ أَنَّ آخِرَتِي قَدْ حَانَتْ .
وَتَمَثَّلَتْ لِي نَصَائِحُ وَالِدَيَّ وَأَهْلِي ، وَذَكَرْتُ كَلِمَاتِ أُمِّي الَّتِي
كَانَتْ تَقُولُهَا لِي وَالِدُومُوحُ مُتَحَدِّرَةً مِنْ مَآفِيهَا^(٤) . وَأَيَقَنْتُ أَنَّ هَذَا
الْمَاصِفَةَ لَيْسَتْ إِلَّا عِقَابًا عَادِلًا وَجَزَاءً وَفَاقًا .

وَاشْتَدَّ هَيْبُجُ الْبَحْرِ واضْطِرَابُهُ . وَرَأَيْتُ الْمَاصِفَةَ الْهَوِجَاءَ ، وَهِيَ
تُنْذِرُنَا بِالْهَلَاكِ - بَيْنَ لَحْظَةٍ وَآخَرَى - وَقَدْ أَوْشَكَ الْمَوْجُ أَنْ
يَتَلَبَّسَنَا جَمِيمًا . وَخِيلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفِينَةَ تَهْبِطُ حَتَّى تَلْسِسَ قَاعَ الْبَحْرِ ،
فَلَمْ أَرَ مَنَاصًا^(٥) مِنَ الْمَوْتِ . وَنَذَرْتُ لِلَّهِ نَذْرًا أَلَّا أَرْكَبَ الْبَحْرَ

(١) تشق الماء . (٢) تتقلب . (٣) تشتد . (٤) جواب مينيها . (٥) مغرباً

مَا حَيِّتُ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ ، إِذَا نَجَوْتُ مِنَ الْهَلَاكِ ! وَدَعَوْتُ اللَّهَ
أَنْ يُنْقِذَنِي ، لِأَعُودَ إِلَى أَبِي تَائِبًا نَادِمًا عَلَى عِصْيَانِي وَخَالَفَتِي ،
وَأُعَاهِدُهُمَا^(١) عَلَى أَنْ أَطِيعُهُمَا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرَانِ بِهِ .

...

وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِي سَكَنَ الْهَوَاءُ ، وَهَذَا الْبَحْرُ . وَبَدَأْتُ أَشْعُرُ أَنَّي
قَدْ تَمَوَّذْتُهُ وَأَلِفْتُهُ بَعْضَ الْأَلْفَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ - حِينَئِذٍ - قَدْ تَمَّ
شِفَاؤِي مِنَ الدُّوَارِ^(٢) .

وَلَمَّا اقْتَرَبَ اللَّيْلُ وَغَرَبَتِ الشَّمْسُ وَانْقَشَعَتِ السُّحُبُ^(٣) ، ظَهَرَتْ
رَوْعَةُ الْبَحْرِ^(٤) ، وَجَمَالُ الطَّبِيعَةِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَهَبَّ عَلَيْنَا فِي الْيَوْمِ
الثَّالِي نَسِيمٌ خَفِيفٌ . وَأَصْبَحَ الْبَحْرُ كَالْمِرَآةِ الصَّافِيَةِ ، وَتَجَلَّتِ الطَّبِيعَةُ
فِي أَبْعَى حُلَاهَا^(٥) . وَرَأَيْتُ مِنْ جَمَالِ الْبَحْرِ - فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ -
مَا أَنْسَانِي هِيَاجُهُ واضْطِرَابُهُ بِالْأَمْسِ . فَتَسَيَّتُ ذَلِكَ النَّذْرَ الَّذِي نَذَرْتُهُ
لَهُ ، وَالْعَهْدَ الَّذِي قَطَعْتُهُ عَلَى نَفْسِي !

...

(١) أحلف لهما . (٢) وجع يمسبب الرأس من ركوب البحر . (٣) زالت .
(٤) حسن منظره . (٥) أجمل أنوارها .

وَجَاءَ إِلَى صَدِيقِي يُرَبِّتُ كِتْفِي وَيَقُولُ :

« كَيْفَ تَجِدُكَ الْآنَ ؟ شَدَّ مَا رَوَّعَكَ ^(١) الْبَحْرُ ، يَا صَدِيقِي .
وَمَا كَانَ أَجْدَرَكَ ^(٢) بِالشَّجَاعَةِ ، فَقَدْ امْتَلَأَتْ نَفْسُكَ خَوْفًا وَرُعبًا حِينَ
هَبَّتْ عَلَيْنَا نَسَمَةٌ لَطِيفَةٌ مِنَ الْبَحْرِ . »

* * *

فَقُلْتُ لَهُ مُتَعَجِّبًا : « كَيْفَ تُسَمِّيهَا نَسَمَةً ، وَهِيَ عَاصِفَةٌ هَوَّاجَةٌ
مُرْوَعَةٌ ؟ »

فَقَالَ لِي : « وَكَيْفَ تُسَمِّيهَا عَاصِفَةً ؟ يَا لَكَ مِنْ سَازِجٍ !
لِئَنَّا نَسَمَةٌ خَفِيفَةٌ ، طَالَمَا أَلْفَنَاهَا وَهَزْنُنَا بِهَا . فَلَا تَجْزَعُ مِنْ
أَمْثَالِهَا ؛ فَإِنَّتَ رَجُلٌ ، وَمَا أَجْدَرَ الرَّجُلَ أَنْ يَكُونَ شُجَاعًا ! »

٣ - فِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ

وَقَدْ أَنْسَانِي هُدُوءُ الْبَحْرِ وَصَفَاؤُهُ كُلَّ آلَمِي وَأَحْزَانِي . وَشَغَلَنِي
التَّأَمُّلُ فِي جَمَالِ الطَّبِيعَةِ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَلَمْ يَنْقُصْ عَلَيَّ سَبْعَةُ أَيَّامٍ

(١) أزعجك . (٢) ما أهلكك .

حَتَّى اطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي إِلَى حَيَاةِ الْبَحْرِ ؛ وَلَمْ أَعُدْ أَذْكُرْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِي ،
وَنَسِيتُ كُلَّ مَا زَوَّدُونِي بِهِ مِنْ نَصَائِحَ . وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّامِنِ
عَنْفَتِ الرِّيحُ ، وَاشْتَدَّتْ اشْتِدَادًا لَا مِثِيلَ لَهُ : وَبَدَأَ الْقَلْقُ وَالْاضْطِرَابُ
عَلَى أَسَارِيرِ الْمَلَّاحِينَ^(١) ؛ فَأَنْزَلُوا أَسْرِعَةَ السَّفِينَةِ ، وَتَأَهَّبُوا^(٢) لِمَلَاكَةِ
الْخَطَرِ وَجْهًا لَوَجْهِهِ . وَلَمَّا جَاءَ وَقْتُ الظُّهْرِ اشْتَدَّ هَيَاجُ الْبَحْرِ ، وَدَبَّ
الْيَأْسُ فِي نُفُوسِنَا جَمِيعًا . وَسَمِعْتُ رُبَّانَ السَّفِينَةِ — وَقَدْ كَانَ مِثَالِ
الشَّجَاعَةِ وَالْحَزْمِ — وَهُوَ يُنَاجِي نَفْسَهُ بِصَوْتٍ خَافِيٍّ : « رَحْمَةً بِنَا
يَا إِلَهِي ! فَقَدْ هَلَكْنَا جَمِيعًا ، وَلَمْ يَبْقَ لَنَا مَلْجَأٌ سِوَاكَ . »

وَامْتَلَأَتْ نَفْسِي رُغْبًا ؛ إِذْ رَأَيْتُ الْأَمْوَاجَ تَرْتَفِعُ كَالْجِبَالِ ، وَتَنْقَضُ^(٣)
عَلَيْنَا فِي كُلِّ لَحْظَةٍ ، فَيُخَيِّلُ إِلَيْنَا أَنَّهَا قَدْ ابْتَلَمَتْنَا . وَرَأَيْنَا السُّفُنَ
الْقَرِيبَةَ تُمَانِي مِثْلَ مَا تُمَانِيهِ ، وَقَدْ غَرِقَتْ سَفِينَةٌ كَبِيرَةٌ بِالْقُرْبِ مِنَّا .
وَمَا انْتَصَفَ اللَّيْلُ حَتَّى صَاحَ أَحَدُ الْمَلَّاحِينَ يَطْلُبُ مِنْ رِفَاقِهِ النُّجْدَةَ
وَالْعَوْتَ ؛ فَقَدْ مُقِبَتِ السَّفِينَةُ ! وَأَسْرَعْنَا إِلَيْهِ ، فَرَأَيْنَا نُفْرَةً^(٤) يَتَدَفَّقُ

(١) خطوط جيئهم (٢) استندوا (٣) تسقط (٤) خرقاً .

مِنْهَا الْمَاءَ . وَتَمَاوَنَّا جَمِيعًا عَلَى إِخْرَاجِ الْمَاءِ مِنَ السَّفِينَةِ . وَأَطْلَقَتْ
إِلْحَدَى السُّفُنِ الْقَرِيبَةِ مِنَّا مِدْفَعًا ، إِنْذَارًا بِالْخَطَرِ ، وَطَلَبًا لِلنَّجْدَةِ .
وَقَدْ أَغْيَى عَلَى مِن شِدَّةِ الْخَوْفِ .

وَلَمْ أَفِقْ مِنْ غَشْيَتِي إِلَّا بَعْدَ زَمَنٍ طَوِيلٍ . وَأَطْلَقَ رُبَانُنَا مِدْفَعًا ،
الْتِمَاسًا لِلنَّجْدَةِ . فَدَنَتْ مِنَّا سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِإِتْقَازِنَا ، وَحَمَلَتْنَا إِلَى بَاخِرَةٍ
قَرِيبَةٍ . وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَصِلَ إِلَيْهَا إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ^(١) شَدِيدٍ .

• • •

وَبَعْدَ دَقَائِقَ قَلِيلَةٍ رَأَيْنَا سَفِينَتَنَا وَهِيَ تَفَرَّقُ . وَمَضَى عَلَيْنَا زَمَنٌ
طَوِيلٌ وَنَحْنُ مُسْتَهْدِفُونَ^(٢) لِلْخَطَرِ بَيْنَ لَحْظَةٍ وَأُخْرَى . وَلَمْ نَبْلُغِ
الشَّاطِئَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ خَارَتْ^(٣) قُوَانَا وَيَتُسْنَا مِنَ النَّجَاجِ .

٤ — بَعْدَ النَّجَاجِ مِنَ الْفَرَقِ

وَلَقَدْ كَانَ جَدِيرًا بِي — بَعْدَ أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيَّ بِالسَّلَامَةِ مِنْ
الْفَرَقِ — أَنْ أَفِي بِنَذْرِي ، وَأَعُودَ إِلَى أَهْلِي تَائِبًا نَادِمًا عَلَى مَا قَرَّطَ^(٤)

(١) تعب . (٢) مستعرضون . (٣) ضعفت . (٤) ما سبق وقوعه .

مِنِّي . وَلَكِنْ غُرُورَ الشَّبَابِ ^(١) حَالِ يَنِينِي وَبَيْنَ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ
 النَّبِيلَةِ . فَقَدْ تَمَثَّلَتْ لِي شِمَاتُهُ النَّاسِ بِي ، وَسُخْرِيَتُهُمْ مِنِّي ؛ لَمَّا لَحِقَنِي
 مِنَ التَّكَبُّاتِ فِي تِلْكَ الرُّحْلَةِ الْمَشْثُومَةِ . وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي إِذَا عُدْتُ
 إِلَى أَهْلِي ، أَصْبَحْتُ سُخْرِيَةَ النَّاسِ . وَعَزَّ عَلَى نَفْسِي أَنْ أُعْتَرِفَ بِخَطَايَايَ .
 وَقَدْ كَلَّفَنِي هَذَا الْغُرُورُ ثَمَنًا غَالِيًا جِدًّا ؛ فَقَدْ دَفَعَنِي الْعِنَادُ إِلَى اقْتِحَامِ
 الْأَخْطَارِ وَرُكُوبِ الْبِحَارِ ، وَلَقِيتُ مِنَ الْمَصَائِبِ مَا لَمْ يَخْطُرْ لِي
 عَلَى بَالٍ .

فَرَزَمْتُ — بَعْدَ أَنْ سَافَرْتُ إِلَى « لَنْدَنْ » — عَلَى مُرَافَقَةِ جَمَاعَةٍ
 مِنَ التَّمْلَاحِينَ فِي رِحْلَتِهِمْ إِلَى شَوَاطِئِ إِفْرِيقِيَّةٍ . وَلَمْ أَعْلَمْ مَا يَنْبُؤُهُ
 لِي الْقَدَرُ مِنَ الْمَتَاعِبِ وَالْآلَامِ .

(١) خداعه وباطله .

بَيْنَ الْأَسْرِ وَالْحُرِّيَّةِ

١ - رَحْلَةُ مُوَقَّةَ

كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَكُونَ حَيَاتِي آتَابِلَةً سِلْسِلَةً مِنَ الْكُورِثِ^(١) رَأْسَكِبَاتٍ ، فَلَا أَجْلَصَ مِنْ مُصِيبَةٍ حَتَّى تُسَلِّمَنِي إِلَى أُخْرَى ، وَلَا أَنْجُوَ مِنْ مَازِقٍ^(٢) حَتَّى أَقَعَ فِي مَازِقٍ شَرٍّ مِنْهُ . فَقَدْ أَغْضَبْتُ وَالِدِي وَأَهْلِي ، وَأَهْمَلْتُ نَصَائِحَهُمْ ، وَخَرَجْتُ مِنْ بَيْتِي بِلاِ إِذْنِ مِنْهُمْ . وَثَمَّةَ أَيْقَنْتُ أَنَّ مَا حَلَّ بِي مِنَ الْكُورِثِ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عِقَابًا مَدْلًا عَلَى تَمَرُّدِي وَعِصْيَانِي .

لَقَدْ عَزَمْتُ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّفَرِ ، بَعْدَ أَنْ عَزَّ عَلَيَّ أَنْ أَعُودَ إِلَى بَيْتِي مُخْفِقًا^(٣) . وَأَرَدْتُ أَنْ أَضْلِحَ الْخَطَأَ الْأَوَّلَ بِخَطِئَةٍ أُخْرَى ، أَكْثَرَ شَنْاعَةً مِنْهُ . فَمَا صَاحَبْتُ رُبَّانَ إِحْدَى السُّفُنِ - وَكَانَ أَوَّلَ شَخْصٍ لَقِيتُهُ مِنَ الْمَلَّاحِينَ - حَتَّى اعْتَرَمْتُ مُرَاقَقَتَهُ فِي رِحْلَتِهِ .

(١) غائباً .

(٢) ضيق وشدة .

(٣) المصائب .

وَكَاثَ سَفِينَتُهُ ذَاهِبَةً إِلَى شَوَاطِلِي « غَانَةَ » وَقَدْ أَخْبَرَنِي بِمَا لَقِيَ
 مِنْ نَجَاجٍ ، وَمَا أَفَادَ مِنْ غِنَى وَثَرَوَةٍ ، فِي رِحْلَتِهِ الْأُولَى إِلَى تِلْكَ
 الْبِلَادِ . وَمَا تَعَرَّفَ قِصَّتِي حَتَّى شَجَعَنِي عَلَى مُصَاحَبَتِهِ ، وَأَعْفَانِي مِنْ
 نَقَقَاتِ الرِّحْلَةِ . وَأَقْرَحَ عَلَيَّ أَنْ أَشْتَرِيَ — بِمَا مَعِيَ مِنَ النُّقُودِ —
 بَضَائِعَ لَا تَجِرُ بِهَا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ ؛ فَعَمَلْتُ كُلَّ مَا أَمَرَ بِهِ عَلَيَّ .
 وَنَجَعْتُ هَذِهِ الرِّحْلَةَ . وَقَدْ بَدَلَ جُهْدَهُ فِي تَدْرِيبِي عَلَى الْمِلَاحَةِ
 وَالتَّجَارَةِ . وَعُدْتُ إِلَى « لَنْدَن » مُغْتَبِطًا رَاضِيًا بِمَا أَصَبَتْهُ مِنْ
 رِنَجٍ وَتَوْفِيقٍ .

٢ - لُصُوصُ الْبَحْرِ

وَبَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ تُوُفِّيَ ذَلِكَ الرَّبَّانُ . فَحَزِنْتُ لِمَوْتِهِ حُزْنًا شَدِيدًا ؛
 وَمَنْحَتُ أَرْمَلَتَهُ مِائَتَيْ جُنَيْدٍ . وَشَرَيْتُ بَضَائِعَ بِمِائَةِ الْجُنَيْدِ الْبَاقِيَةِ
 مَعِيَ ، وَأَبْعَرْتُ إِلَى « غَانَةَ » . وَلَكِنْ رِحْلَتُنَا — فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ —
 لَمْ تَكُنْ مُوَفَّقَةً ؛ فَقَدْ أَغْتَرَضْنَا لُصُوصَ الْبَحْرِ فِي الطَّرِيقِ ، فَأُطْلَقْنَا
 لِسَفِينَتِنَا الْوَحِيدَةِ ، وَحَاوَلْنَا النِّجَاةَ مِنْهُمْ . وَكَانَ فِي سَفِينَتِنَا اثْنَا عَشَرَ مِذْفَاكًا ،

وَعِنْدَ أَعْدَائِنَا ثَمَانِيَةَ عَشَرَ مِذْمَعًا . وَكُنَّا أَقَلَّ مِنْهُمْ عَدَدًا ، وَلَكِنَّا
 اسْتَبَسَلْنَا فِي دِفَاعِنَا وَقَهَرْنَاهُمْ مَرَّتَيْنِ . ثُمَّ كَرُّوا عَلَيْنَا - فِي الْمَرَّةِ
 الثَّالِثَةِ - فَقَهَرُونَا ، وَحَطَّمُوا قِلَاعَنَا ، وَقَتَلُوا ثَلَاثَةً مِنْ رِجَالِنَا ،
 وَجَرَحُوا ثَمَانِيَةَ ؛ فَاضْطَرَرْنَا إِلَى الْإِذْعَانِ لَهُمْ ، وَوَقَعْنَا فِي أَسْرِهِمْ .

٣ - الْعُبُودِيَّةُ

وَقَدْ أَعْجَبَ الرُّبَّانُ بِنَشَاطِي ؛ فَاتَّخَذَنِي عَبْدًا لَهُ . وَلَبِثْتُ فِي
 خِدْمَتِهِ عَامَيْنِ كَامِلَيْنِ ، وَأَنَا أَفْكَرُ فِي وَسِيلَةِ الْهَرَبِ فَلَا أَوْفُقُ .
 وَكَانَ كَثِيرًا مَا يَصْحَبُنِي لِأَصْطَادَ مَعَهُ ، وَقَدْ وَثِقَ بِي فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ .



وَفِي أَحَدِ الْأَيَّامِ ، طَلَبَ
 مِنِّي الرُّبَّانُ أَنْ أَصْطَادَ سَمَكًا
 لِيَتَمَشَّى بِهِ مَعَ صُيُوفِهِ ؛ فَرَأَيْتُ
 الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِلْهَرَبِ ؛ فَقَدْ
 تَرَكْتُ إِلَى الرُّبَّانِ سَفِينَةَ الصَّيْدِ ،
 وَلَمْ يَكُنْ يَصْحَبُنِي إِلَّا فَتًى

رَقِيقٌ ، وَرَجُلٌ مِنْ أَقْرَبِ الرُّبَّانِ . فَقُلْتُ لِلرَّجُلِ :
 « يَجِبُ أَنْ تُعِدَّ لَنَا زَادًا ^(١) نَأْكُلُهُ حَتَّى لَا نَشْرَكَ سَيِّدَنَا فِي أَكْلِهِ . »
 فَأَقَرَّنِي عَلَى هَذَا الرَّأْيِ ، وَأَخْضَرَ لَنَا سَلَّةً مِنَ الْفَطَائِرِ الْيَابِسَةِ
 وَالْخُشْكَنَانِ ^(٢) ، وَثَلَاثَ جَرَّاتٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً . وَذَهَبْتُ إِلَى مَخْزَنِ
 الرُّبَّانِ ؛ فَأَخْضَرْتُ مَعِيَ قَاسًا وَقَدُومًا وَحِبَالًا ، وَطَلَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ
 أَنْ يُخْضِرَ لَنَا بُنْدُقِيَّاتٍ وَرِصَاصًا لِنَصْطَادَ بِهَا ، فَأَخْضَرَ لِي مَا طَلَبْتُ .
 وَهَكَذَا أَعَدَدْتُ كُلَّ مُعَدَّاتِ الْحَرْبِ .

٤ - الْفِرَارُ

لَقَدْ أَزْمَعْتُ الْفِرَارَ ^(٣) ، وَلَمْ أَكُنْ عَلَى ثِقَةٍ مِنَ النِّجَاحِ ؛ وَلَكِنِّي
 أَتَيْتُ أَنْ الْعَزِيمَةَ الصَّادِقَةَ تَتَغَلَّبُ عَلَى كُلِّ عَاقِبَةٍ تَعْتَرِضُهَا ، مَا دَامَ
 الْيَأْسُ لَا يَعْرِفُ سَبِيلًا إِلَيْهَا .

وَمِيزْنَا مَسَافَةَ طَوِيلَةً وَأَنَا أَوْهَمُ الرَّجُلِ أَنَّي جَادٌّ فِي تَحْقِيقِ فِكْرَةِ
 الرُّبَّانِ . ثُمَّ غَافِلَتُهُ وَقَذَفْتُ بِهِ إِلَى الْبَحْرِ - وَكَانَ مَاهِرًا فِي السَّبَاحَةِ -

(١) خُطْمًا . (٢) الْبُسْكُونِ . (٣) اعْتَزَمْتُ الْحَرْبَ .

وَرَأَيْتُهُ يُوشِكُ أَنْ يَلْحَقَ بِي ، فَصَوَّيْتُ بُنْدُقِيَّ إِلَى رَأْسِهِ ، وَهَدَدْتُهُ
بِالْقَتْلِ إِذَا تَتَبَعَنِي ؛ فَاضْطُرُّ
لِلرُّجُوعِ إِلَى الشَّاطِئِ ، بَعْدَ أَنْ
يَبْسُ مِنَ الظَّفَرِ بِي .



وَسَأَلْتُ الْفَتَى : « أَتُمَاهِدُنِي
عَلَى الْوَفَاءِ ، أَمْ تَعُودُ أَذْرَاجَكَ
كَمَا عَادَ هَذَا الرَّجُلُ ؟ فَإِنِّي
عَامِلٌ عَلَى قَتْلِكَ إِذَا لَاحَ (١)
لِي مِنْكَ الْغَدْرُ . »

فَابْتَسَمَ لِي الْفَتَى ، وَأَقْسَمَ : إِنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدَ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي
وَالنَّهَابِ مَعِيَ إِلَى حَيْثُ أُرِيدُ . وَظَلَّلْنَا فِي سَيْرِنَا خَمْسَةَ أَيَّامٍ ، وَالرَّيْحُ
مُعْتَدِلَةٌ وَالْبَحْرُ هَادِيٌّ وَقَدْ أَيقَنْتُ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَسْتَطِيعَ الْإِلْحَاقَ
بِنَا بَعْدَ ذَلِكَ . فَلَمَّا حَانَ الْمَسَاءُ ، دَنَوْتُ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَاعْتَزَمْتُ
قَضَاءَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ بِالتَّقَرُّبِ مِنْهُ .

٥ - الوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ

ثُمَّ خَطَرَ لِي أَنْ أَخْرُجَ كَيْلًا إِلَى الشَّاطِئِ لِأَتَعَرَّفَ : أَيْنَ نَحْنُ ؟
وَلَيْكُنَّا سَمِعْنَا أَصْوَاتًا مُرَوِّعَةً ، وَأَحْسَسْنَا أَنَّ وُحُوشًا تَزَارُ بِالقُرْبِ
مِنَّا ؛ فَالَحَّ عَلَى الْفَتَى أَلَّا أَغَادِرَ الْمَرْكَبَ حَتَّى لَا تَتَعَرَّضَ لِلْهَلَاكِ .
وَقَضَيْنَا لَيْلَتَنَا سَاهِرَيْنِ بِالقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، وَنَحْنُ مُتَحَفِّزَانِ^(١)
لِنَفِجَ غَارَةً هَذِهِ الْوُحُوشِ^(٢) ، إِذَا أَقْبَلَتْ نَحُونَا .
وَرَأَيْتُ سِرْبًا مِنْهَا يَتَقَدَّمُ إِلَى مَرْكَبِنَا ؛ فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِهَا ،



فَإِدَّت الْوُحُوشُ أَذْرَاجَهَا ، وَهِيَ
تُزْمَجِرُ^(٣) ، وَقَدْ تَمَلَّكَهَا الذُّغْرُ
حِينَ سَمِعَتْ دَوَى الرِّصَاصِ ،
وَلَمْ يَكُنْ لَهَا بِسَمَاعِهِ عَهْدٌ .
وَاشْتَدَّتْ حَاجَتُنَا إِلَى الْمَاءِ ؛
فَأَرَادَنِي الْفَتَى عَلَى أَنْ أُبْنِيَ
فِي السَّفِينَةِ ، وَأُعْهَدَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلَأَ

(٢) تصيح .

(١) متهيّجان . (٢) هجومها .

الجرّة ، فسألته : لماذا يتشبّه^(١) بالذهاب ؟
 فقال لي : « أريد أن أتمرّض للخطر وحدى . فإذا قتلت في الطريق
 سهل عليك أن تنجو بنفسك . »
 فأكبرت^(٢) إخلاصه ، وأيدت إلا الذهاب معه . ورسونا بالقرب
 من الشاطئ ؛ وابتعدا لفتى عنى قليلا ، ثم حادّا مسرعا وقد اصطادا
 أرنبًا ، واهتدى إلى مكان الماء . وثم^(٣) أكلنا الأرنب مسرورين ،
 واستأنفنا السير بالقرب من الشاطئ .

٦ - صيد الأسد

والتفت إلى الفتى فجأة يحتشئ^(٤) على أن أبتدع عن الشاطئ ،
 وكان بصره حديدًا^(٥) ؛ فلمحت أسدًا جليًا من بعيد ، وكان
 ضخم الجسم .

وقد اشتدّ دغر الفتى منه ؛ فطلبت إليه أن يسكن حتى لا ينبّه
 الأسد . ثم حشوت بُندقِيَّيَ الثلاث رصاصًا ، وصوّبت الأولى إلى
 رأسه ، وهو نائم . وكان الأسد واضعًا إحدى يديه على فيه^(٦) ؛

(١) يصر . (٢) عظمت . (٣) هناك . (٤) يستعجلني . (٥) قويًا . (٦) فمه .



فَأَصَابَتْ الرِّصَاصَةُ سَاقَهُ ، فَحَطَّمَتْ عَظْمَهَا . فَوَقَفَ مَذْمُورًا عَلَى سُوقِهِ
 الثَّلَاثِ . وَاشْتَدَّ زَيْبُهُ ؛ فَأَطْلَقَتْ عَلَيْهِ رِصَاصَةً ثَانِيَةً ، فَخَرَّ^(١)
 صَرِيحًا مُجَدِّلاً^(٢) يَنْشَحْطُ^(٣) فِي دَمِهِ . وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ،
 فَأَفْرَغَ رِصَاصَةً فِي أُذُنِهِ ؛ فَهَمَدَ الْأَسَدُ مِنْ سَاعَتِهِ .
 وَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا فَعَلْتُ ؛ فَقَدْ أَضَعْتُ ثَلَاثَ رِصَاصَاتٍ فِي قَتْلِ
 الْأَسَدِ ، وَلَيْسَ لَنَا فِي لَحْمِهِ غَدَاءٌ .

(١) سقط . (٢) مرتباً . (٣) يضطرب .

وَأَسْرَعَ الْفَتَى إِلَى الْأَسَدِ ، وَحَاوَلَ أَنْ يَقْطَعَ رَأْسَهُ بِفَأْسِهِ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ ، فَاكْتَفَى بِقَطْعِ إِحْدَى يَدَيْهِ ، وَحَمَلَهَا إِلَى . ثُمَّ تَعَاوَنَّا عَلَى سَلْخِهِ فِي مَدَى يَوْمٍ كَامِلٍ ، وَجَفَفَتْهُ الشَّمْسُ فِي مَدَى يَوْمَيْنِ ، ثُمَّ أَبْجَرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ - صَوْبَ الْجَنُوبِ - وَقَدْ أَوْشَكَ زَادُنَا أَنْ يَنْتَهِيَ . ثُمَّ سِرْنَا عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخَرَ ، وَنَحْنُ نَدْعُو اللَّهَ أَنْ نَلْتَقِيَ بِإِحْدَى السُّفُنِ الذَّاهِبَةِ مِنْ « أَوْرُبَّة » إِلَى « غَانَّة » أَوْ الْآتِيَةِ مِنْ « غَانَّة » إِلَى « أَوْرُبَّة » . وَلَمْ يَكُنْ يُعْزِينَا^(١) فِي رِحْلَتِنَا شَيْءٌ سِوَى هَذَا الْأَمَلِ ، فَإِذَا أَخْفَقَ فَلَيْسَ أَمَامُنَا إِلَّا الْهَلَاكُ .

٧ - عَلَى الشَّاطِئِ

وَرَأَيْنَا جَمَاعَةً مِنَ الرُّجَالِ بِالْقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ وَهُمْ عُرَاةٌ . وَقَدْ أَرَذْتُ الذَّهَابَ إِلَيْهِمْ ، فَحَوَّلَنِي الْفَتَى عَنْ هَذَا الْعَزْمِ . وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَسْلِحَةٌ ، مَا عَدَا رَجُلًا مِنْهُمْ كَانَ يَحْمِلُ عَصًا صَغِيرَةً . فَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي جَائِعٌ ، فَطَلَبُوا مِنِّي أَنْ أَرْسُوَ قَرِيْبًا . وَأَسْرَعَ اثْنَانِ مِنْهُمْ فَأَخْضَرَا إِلَى خُبْزَا وَقِطْعَتَيْنِ مِنَ اللَّحْمِ بَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ .

(١) يصبرنا .

وَكُنَّا خَائِفِينَ مِنْهُمْ ، كَمَا كَانُوا خَائِفِينَ مِنَّا ؛ فَمَا وَضَعَ الرَّجُلَانِ
مَا أَخْضَرَاهُ لَنَا عَلَى الشَّاطِئِ حَتَّى تَقَهَّقَا رَجَاءً أَنْ يَأْمَنَا شَرُّنَا . فَلَمَّا أَخَذْنَا
الزَّادَ وَرَجَعْنَا إِلَى السَّفِينَةِ ، حَادَا إِلَى الشَّاطِئِ عِنْدَ إِخْوَانِهِمَا . وَلَمْ يَكُنْ
مَعَنَا مَا تُعْطِيهِمْ لِيَأْكُلُوا ؛ فَكَتَفَيْنَا بِشُكْرِهِمْ .

وَلِئْنَا لَكَذَلِكَ ، إِذْ أَقْبَلَ وَحْشَانِ هَاتِلَانِ ، أَحَدُهُمَا يَجْرِي خَلْفَ
الْآخَرِ مِنَ الْجَبَلِ إِلَى الْبَحْرِ . فَقَرَّ الرَّجُلَانِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا حَامِلُ
الْعَصَا . ثُمَّ هَوَسَى الْوَحْشَانِ إِلَى الْبَحْرِ يَسْبَحَانِ وَيَلْهُوَانِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ أَحَدُهُمَا
إِلَى مَرْكَبِنَا حَتَّى كَادَ يُدَانِنَا . فَأَطْلَقْتُ رَصَاصَةً عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَصَرَغَتْهُ مِنْ
فُؤْرِهِ^(١) . وَظَلَّ يَهْوِي إِلَى الْقَاجِ مَرَّةً ، وَيَطْفُو^(٢) عَلَى سَطْحِ الْمَاءِ مَرَّةً
أُخْرَى ، وَهُوَ يَعْدُو^(٣) نَحْوَ الشَّاطِئِ . وَلَكِنَّهُ مَاتَ فِي مُتَنَصِفِ الطَّرِيقِ ،
وَهَرَبَ الْحَيَوَانُ الْآخَرُ إِلَى الْجَبَلِ . وَصَبَّ الرَّجُلَانِ إِعْجَابًا بِنَا ، وَدَهْشَةً
مِنَّا . عَلَى أَنَّهُمْ قَدْ اشْتَدَّ رُغْبُهُمْ ، وَسَقَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شِدْقِ
الذُّعْرِ . فَأَشْرَتْ إِلَيْهِمْ لِأَطْمَئِنُّهُمْ حَتَّى زَالَ خَوْفُهُمْ ، وَسَكَنَتْ نُفُوسُهُمْ .

• • •

(١) يجرى .

(٢) يعلو .

(٣) قتلته الحال .

ثُمَّ تَمَازُونَا عَلَى سَلَجِ ذَلِكَ الْحَيَوَانِ ، وَقَدَّمُوا إِلَيَّ جُزْءًا مِنْ لَحْمِهِ
لَا سُلْهَ ؛ فَلَمْ أَقْبَلْهُ ، وَشَكَرْتُ لَهُمْ ذَلِكَ ، وَأَكْتَفَيْتُ بِجِلْدِ الْحَيَوَانِ ،
فَأَعْطَوْنِيهِ وَمَعَهُ شَيْءٌ مِنْ زَادِهِمْ .

فَقَبِلْتُ هَدِيَّتَهُمْ شَاكِرًا مُسْرُورًا ، ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِمْ أَنَّنِي فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْمَاءِ ، وَأَعْطَيْتُهُمُ الْجِرَّةَ فَارِغَةً .
فَقَهِمُوا مَا طَلَبْتُ ، وَمَلَأُوهَا لِي مِنْ
فَوْرِهِمْ . ثُمَّ حَيَّتُهُمْ وَأَنْصَرَفْتُ
مُسْتَأْنَفًا^(١) سَبْرِي نَحْوَ الْجَنُوبِ .
وَمَا زِلْتُ كَذَلِكَ أَحَدَ عَشَرَ يَوْمًا .



٨ - الْأَمَلُ بَعْدَ الْيَأْسِ

وَكَانَ مَرْكَبِي يَسِيرُ فِي الْبَحْرِ مُغْتَسِفًا^(٢) ، وَقَدْ كِدْتُ أَفْقِدُ الْأَمَلَ
فِي النَّجَاةِ . وَلَمْ أَكُنْ أَدْرِي إِلَى أَيِّ مَكَانٍ أَذْهَبُ ؟ وَأَيَّ غَايَةٍ
أَيْمَمُ^(٣) ؟ وَاشْتَدَّ أَرْتِبَاكِي ، وَزَادَ نَدْيِي عَلَى مَا سَلَفْتُ مِنْ عِصْيَانِ

(١) عائداً إلى . (٢) ضالاً على غير هدى . (٣) أقصد .

وَالَّذِي . وَذَكَرْتُ مَا جَرَّنِي إِلَيْهِ الْغُرُورُ وَالْحَمَاقَةُ ؛ فَاسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ
 نَادِمًا عَلَى مَا فَرَطَ مِنِّي ، وَدَعَوْتُهُ أَنْ يُبَيِّنَ لِي طَرِيقَ الْخَلَاصِ .
 وَإِنِّي لَمَافِرِقٌ فِي هَذِهِ التَّأَمُّلَاتِ إِذْ أَقْبَلَ الْفَتَى عَلَى وَهُوَ يَصِيحُ ،
 وَقَدْ كَادَ الْخَوْفُ يَمْقِدُ لِسَانَهُ : « انْظُرْ هَذِهِ السَّفِينَةَ الْكَبِيرَةَ
 يَا سَيِّدِي ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَكُونَ سَفِينَةَ الرُّبَّانِ . »
 أَمَّا أَنَا فَقَدْ كُنْتُ عَلَى يَقِينٍ أَنَّ الرُّبَّانَ لَنْ يَهْتَدِيَ إِلَيْنَا .
 وَمَا رَأَيْتُ السَّفِينَةَ حَتَّى عَرَفْتُ ، عَلَى بُعْدِ الْمَسَافَةِ ، أَنَّهَا بُرْتُقَالِيَّةٌ .

* * *

وَبَدَلْتُ جُهْدِي فِي الدُّنُو^(١) مِنْ السَّفِينَةِ لِأَتَعَرَّفَ رَاكِبِيهَا فَلَمْ
 أَفْلِسْ ؛ فَيَتَسَنَّى مِنَ اللَّحَاقِ بِهِمْ . وَلَكِنْ أَحَدَهُمْ رَأَى بِمِجْهَرِهِ^(٢)
 وَقَدْ أَطْلَقْتُ بُنْدُقِيَّتِي ، لِأَشْعِرَهُمْ أَنَّنِي فِي خَطَرٍ .
 وَقَدْ اسْتَطَعْتُ بَعْدَ جُهْدٍ كَبِيرٍ أَنْ أَكُونَ مَعَهُمْ بَعْدَ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ .
 وَمَا عَرَفُوا قِصَّتِي ، حَتَّى أَكْرَمُوا وَفَادَتْنِي^(٣) ؛ فَأَهْدَيْتُ إِلَى رُبَّانِ
 السَّفِينَةِ كُلِّ مَا مَعِيَ ، فَلَمْ يَقْبَلْ شَيْئًا جَزَاءً لَهُ عَلَى صُنْعِهِ .
 وَقَدْ فَاضَ قَلْبِي سُرُورًا بَعْدَ أَنْ تَحَقَّقَ أَمَلِي فِي النِّجَاحِ .

(١) القرب . (٢) بمنظاره المكبر . (٣) قدومي .

٩ - فِي الطَّرِيقِ إِلَى « الْبَرَاذِيلِ »

وَكَانَتِ السَّفِينَةُ ذَاهِبَةً إِلَى « الْبَرَاذِيلِ ». وَقَدْ حَظَرَ الرُّبَّانُ عَلَى الْمَلَّاحِينَ أَنْ يَمَسُّوا شَيْئًا مِنْ مَتَاعِي. وَقَدْ اشْتَرَى مَرْكَبِي بِشَمَانِينَ جُذَيْفًا، وَاشْتَرَى الْفَتَى مِنْ بَيْتَيْنِ جُذَيْفًا. وَلَمْ يَكُنْ يَبِيعُ الْفَتَى الْمَسْكِينَ بِمَخْضٍ رَغْبَتِي^(١)، وَمَا كَانَ لِإِرْضَائِي أَنْ أَتْرُكَهُ رَقِيقًا^(٢)؛ وَلَكِنَّ الرُّبَّانَ وَعَدَنِي بِإِحْلَاقِ سَرَاجِهِ^(٣) بَعْدَ عَشْرِ سَنَوَاتٍ، فَقَبِلْتُ ذَلِكَ مُرْغَمًا.

وَكَانَتْ رِحْلَةُ سَعِيدَةٍ مُرِيجَةً مُوقَفَةً. وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى « الْبَرَاذِيلِ » بَعْدَ اثْنَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا.

١٠ - فِي « الْبَرَاذِيلِ »

وَقَدْ عَرَّفَنِي الرُّبَّانُ بِأَحَدِ أَغْيَانِ « الْبَرَاذِيلِ » - وَكَانَ يَمْلِكُ مَرْزَعَةً لِلْقَصَبِ وَمَصْنَعًا لِلشُّكْرِ - وَأَوْصَاهُ بِخَيْرٍ؛ فَشَكَرْتُ لِلرُّبَّانِ عِنَايَتَهُ بِي وَفَضْلَهُ عَلَيَّ.

وَقَفَعَنِي صُحْبَةُ هَذَا الزَّارِعِ الْكَرِيمِ؛ فَقَدْ عَلَّمَنِي كَيْفَ أَزْرَعُ

(١) خالصر إرادتي. (٢) عبدًا. (٣) تركه حراً.

الْقَصَبَ ، وَكَيْفَ أَصْنَعُ مِنْهُ الشُّكْرَ . وَمَا مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعَةُ أَغْوَامٍ
 حَتَّى نَجَّحْتُ أَعْمَالِي كُلَّهَا ، وَأَصْبَحْتُ فِي رَغَدٍ مِنَ الْعَيْشِ .
 وَكُنْتُ كُلَّمَا ذَكَرْتُ وَطَنِي تَأَلَّمْتُ لِفِرَاقِهِ ، وَاشْتَدَّ حَنِينِي إِلَيْهِ ،
 وَنَدِمْتُ عَلَى تَرْكِهِ .

وَتَعَرَّفْتُ — فِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِي — بِكَثِيرٍ مِنَ الزَّارِعِينَ فِي تِلْكَ
 الْبِلَادِ . فَكُنَّا نَسْمُرُ^(١) فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ ، وَكُنْتُ أَذْكُرُ لَهُمْ مَا وَقَعَ لِي
 فِي أَثْنَاءِ رِحْلَتِي إِلَى « غَانَةَ » ؛ وَكَيْفَ ظَفِرْتُ بِأَمْوَالٍ طَائِلَةٍ مِنَ
 الْإِتْجَارِ بِأَشْيَاءٍ تَافِهَةٍ كَالْمِقَصَّاتِ وَالْمَدَى^(٢) وَالْمَرَايَا وَمَا إِلَى ذَلِكَ .
 فَاشْتَدَّتْ رَغْبَتُهُمْ فِي السَّفَرِ إِلَى « غَانَةَ » ، وَأَعَدُّوا سَفِينَةً كَبِيرَةً ، وَطَلَبُوا
 إِلَيَّ أَنْ أُرَاقِبَهُمْ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ ؛ فَعَاوَدَنِي الْحَنِينُ إِلَى الْبَحْرِ ، وَعَهْدْتُ
 إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِي أَنْ يُعْنَى بِمِزْرَعَتِي وَمَصْنَعِي فِي أَثْنَاءِ غِيَابِي .

ثُمَّ أَبْجَرْتُ بِنَا السَّفِينَةَ فِي أَوَّلِ سِبْتَيْبَرِ ١٦٥٩ م ، وَهُوَ نَظِيرُ الْيَوْمِ
 الَّذِي خَافَرْتُ فِيهِ وَطَنِي وَاسْتَقْبَلْتُ بِهِ عَهْدَ الشَّقَاءِ ، مُنْذُ ثَمَانِيَةِ أَغْوَامٍ .

(١) نَتَحَدَّثُ بِاللَّيْلِ . (٢) السَّكَاكِينُ .

الفصل الثالث

في جزيرة نائية

١ - هُبُوبُ العاصِفَةِ

كَانَتِ السَّفِينَةُ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهَا^(١) لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ سَفِينَةً كَبِيرَةً ، قَادِرَةً

عَلَى حَمْلِ مِائَةِ وَعِشْرِينَ

طُنًا . وَقَدْ زَوَّدَتْهَا

بِسِتَّةِ مَدَافِعَ ، وَأَخْتَرْنَا

لَهَا أَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ

مَلَّاحًا .

وَقَدْ وَضَعْنَا فِيهَا

الْبَضَائِعَ الَّتِي شَرَيْنَاهَا

لِنَتَّجِرَ بِهَا فِي بِلَادِ

« إَفْرِيقِيَّة » ؛ وَهِيَ



مَوْلًى مِنْ مِقْصَّاتٍ وَفُتُوسٍ وَمَطَارِقَ وَمَرَايَا صَغِيرَةٍ وَأَزْرَقَ لِلْمَلَابِسِ
وَمَا إِلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ أَبْحَرَتْ بِنَا السَّفِينَةُ مُيَمَّةً^(١) شَاطِئًا « إِفْرِيقِيَّة » .
وَقَدْ هَبَّتْ عَلَيْنَا - فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ عَشَرَ - عَاصِفَةٌ هَوَاجٌ لَبِثَتْ
أَنْتَى عَشَرَ يَوْمًا ، لَا تَهْدَأُ إِلَّا رَيْثَمَا تَشْتَدُّ وَتَعْنَفُ ، وَلَا تَمُرُّ بِنَا لَحْظَةً
إِلَّا أَنْذَرْتَنَا بِالْفَرْقِ .

وَهَكَذَا ظَلَلْنَا تَتَرَقَّبُ الْهَلَاكَ بَيْنَ حَيْنٍ وَحَيْنٍ ، بَعْدَ أَنْ ضَلَلْنَا
طَرِيقَنَا فِي الْبَحْرِ ، خِلَالَ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي هَبَّتْ فِيهَا الْعَاصِفَةُ .

٢ - زَوْرَقُ النِّجَاجِ

ثُمَّ رَأَيْنَا - عِنْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ - أَرْضًا تَبْدُو لَنَا مِنْ بَعِيدٍ ؛
فَلَا حَ لَنَا أَمَلٌ كَثِيرٌ فِي النِّجَاجِ . وَلَبِكُنَّا لَمْ نَلْبَثْ أَنْ فَقَدْنَا ذَلِكَ
الْأَمَلَ ، وَحَلَّ مَحَلَّهُ الْيَأْسُ وَالْقُنُوطُ . فَقَدْ قَذَفَتِ الْعَاصِفَةُ بِسَفِينَتِنَا
إِلَى كَثِيبٍ^(٢) مِنَ الرَّمْلِ . وَكَانَتِ الصَّدْمَةُ قُوَّةً عَنِيفَةً ؛

(١) قاصدة . (٢) تل .



فَتَعَطَّلَتِ السَّفِينَةُ ،
وَعَمَرَتْهَا الْأَمْوَاجُ .
الْهَائِجَةُ ؛ فَلَمْ نَجِدْ
مِنْ الْهَلَاكِ بُدًّا ،
وَعَرَفْنَا أَنَّ آخِرَتَنَا
قَدْ دَنَتْ .

عَلَى أَنْ نَأْتِيَ

نَسْتَسْلِمُ لِلْيَأْسِ ؛ فَأَسْرَعْنَا إِلَى زَوْرَقِ النِّجَاجِ ، فَأَنْزَلْنَاهُ فِي الْبَحْرِ ،
وَبَدَّلْنَا كُلَّ مَا فِي وُسْعِنَا لِلْخِلَاصِ . وَظَلَّلْنَا نَجْدُفُ بِكُلِّ قُوَانَا ، حَتَّى
أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةِ مِيلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ مِنَ الشَّاطِئِ ، حَيْثُ دَهَمَتْنَا^(١)
مَوْجَةٌ طَافِغِيَّةٌ ؛ فَخُيِّلَ إِلَيْنَا أَنَّ جَبَلًا مِنَ الْمَاءِ قَدْ انْقَضَ^(٢) عَلَيْنَا ،
فَانْقَلَبَ الزَّوْرَقُ فِي الْحَالِ .

وَلَمْ أَرَ بِجَانِبِي أَحَدًا مِنْ رِفَاقِي ، وَلَمْ أَعْلَمْ بَعْدَ ذَلِكَ مَصِيرَهُمْ^(٣) .

(١) غمرتنا . (٢) سقط . (٣) نهايتهم .

٣ - النجاة من الغرق

أما أنا فقد لعبت في الأمواج ، ثم قذفت بي إلى صخرة كبيرة ،
وكانت الصدمة عنيفة ، فأغمي عليّ ، ثم أفتت بمد قليل . وكان
من حسن حظي أنني أفتت قبل أن يستأنف البحر ثورته .
وما رأيت الموجة قادمة عليّ - لتبتلني في طيها - حتى أمسكت
بالصخرة متشبثاً بكلّ قوتي ، حتى تنحدر^(١) المياه عني .
ثم هدأت نائرة البحر قليلاً ؛ فحاولت إمكاني ، وبذلت
جهدى ، حتى بلغت الشاطئ ، وأنا لا أكاد أصدق بالنجاة
من الغرق .

٤ - بمد النجاة

وشعرت بفرح شديد حين رأيته قد نجوت من الهلاك .
وأجلت لحظي^(٢) في أنحاء البحر ، أنلمس رؤية أحد من رفاقي ؛

(١) تنصرف . (٢) أدركت عني .

فَلَمْ أَرَ إِلَّا مُبْعَاتٍ
ثَلَاثًا ، وَقَلَنْسُوءَةً ^(١) ،
وَنَمْلًا ، طَافِيَةً عَلَى
سَطْحِ الْمَاءِ . فَأَيَقَنْتُ
أَنْ رِفَاقِي جَمِيعًا
قَدْ هَلَكُوا ، وَلَمْ
تُكْتَبْ لَهُمُ النِّجَاةُ .



وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمَوْتِ

هَؤُلَاءِ الْأَصْحَابِ ، كَمَا تَأَلَّمْتُ لِنَفْسِي أَيْضًا ؛ فَقَدْ
كُنْتُ - حِينَئِذٍ - فِي حَالٍ يُرْتَى لَهَا ^(٢) ، فِثْيَابِي
مُبْتَلاَةٌ ، وَلَيْسَ مَعِيَ ثِيَابٌ أُسْتَبَدِّلُهَا بِهَا .

وَشَعَرْتُ بِالْمِ الْجُوعِ ، وَلَيْسَ عِنْدِي مَا أُتَبَلَّغُ بِهِ ^(٣) . وَالْح ^(٤)
عَلَى الضَّعْفِ ، وَتَخَاذَلَتْ أَعْضَائِي ، وَلَمْ أَجِدْ سَبِيلًا لِاسْتِزْدَادِ قَوَائِ
بَعْدَ أَنْ أَضْنَاهَا التَّمَبُّ وَالْكَفَاحُ .

(١) غطاء رأس (٢) تدعو إلى الشفقة . (٣) ما أستسقى به الحياة من الطعام (٤) اشتد .

هـ - يَنّ أَغْصَانِ شَجَرَةٍ

وَحَشِيتُ أَنْ يَذْهَبَنِي ^(١) اللَّيْلُ ؛ فَأَصْبَحَ فَرِيسَةً لِلْوُحُوشِ ، وَلَيْسَ
مَعِيَ سِلَاحٌ أَصْطَادُ بِهِ - مِنْ الْحَيَوَانِ - مَا أَقَاتُ بِهِ ، أَوْ أَدْفَعُ بِهِ
عَنِّي غَالِثَةَ الْوُحُوشِ الْمَادِيَةِ ^(٢) إِذَا حَاوَلَتْ أَفْتِرَاسِي . فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ
- حِينَئِذٍ - غَيْرُ مُدِيَةٍ ^(٣) لَا غِنَاءَ فِيهَا ^(٤) . فَتَمَثَّلَ لِي حَرْجٌ مَرَكَزِي ،
وَرَأَيْتُ الْمُسْتَقْبَلَ مَرْهُوبًا ^(٥) مُظْلَمًا . وَصِرْتُ أُعْدُو ^(٦) فِي كُلِّ مَكَانٍ ،
وَقَدْ أَذْهَلَنِي الْفَزَعُ ، وَأَنْسَانِي الْخَوْفُ كُلَّ شَيْءٍ .

مَتَّمَّ أَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَأَشْتَدَّ رُغْبِي ، وَلَمْ أَجِدْ لِي مَنَاصًا ^(٧) مِنْ
التَّفَكِيرِ فِي مَكَانِ نَوْمِي . فَتَخَيَّرْتُ شَجَرَةً كَبِيرَةً بِالقُرْبِ مِنِّي ،
وَجَلَسْتُ يَنّ أَغْصَانِهَا الْمُشْتَبِكَةِ . وَكُنْتُ قَدْ وَصَلْتُ إِلَى أَقْصَى
دَرَجَاتِ الْإِغْيَاءِ وَالتَّعَبِ ؛ فَغَلَبَنِي النَّوْمُ طُولَ لَيْلِي ، وَلَمْ أُسْتَيْقِظْ

(١) يَفَاجِئُنِي . (٢) شَرُ الْحَيَوَانَاتِ الْمُفْتَرِسَةِ . (٣) سَكِينَةٌ . (٤) لَا فَالَةَ مِنْهَا .
(٥) غَوْفًا . (٦) أَجْرَى . (٧) نَجَاةً .



إِلَّا فِي ضُحَى الْغَدِ ؛ فَرَأَيْتُ الشَّمْسَ مُشْرِقَةً ، وَالْجَوَّ صَخَوًا ، وَالْبَحْرَ
هَادِنًا جَمِيلًا .

٦ - السَّفِينَةُ

وَأَجَلْتُ لِحَاظِي^(١) فِي أَرْجَاءِ الْبَحْرِ ؛ فَاشْتَدَّتْ دَهْشَتِي حِينَ رَأَيْتُ
السَّفِينَةَ جَائِمَةً^(٢) عَلَى بُعْدِ مِيلٍ مِنَ الْجَزِيرَةِ . وَكَانَ الْمَدُّ^(٣) قَدْ أَخْرَجَهَا
مِنَ الْكَثِيبِ^(٤) ، وَقَذَفَ بِهَا قَرِيبًا مِنَ الصُّخْرِ الَّتِي قَذَفْتَنِي

(١) درت بصرى . (٢) باقية . (٣) امتداد الماء . (٤) التل من الرمل .

إِلَيْهَا الْأَمْوَاجُ أَمْسٍ . فَمَنْ^(١) لِي رَأْيٌ سَدِيدٌ^(٢) ، ذَلِكَ : هُوَ أَنْ أُسْرِعَ
إِلَيْهَا ، فَآخُذَ مِنْهَا أَمِّمًا مَا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، قَبْلَ
أَنْ تَطْنِي الْأَمْوَاجُ عَلَى السَّفِينَةِ ، وَيَطْوِيَهَا الْبَحْرُ فِي قَرَارِهِ . وَشَجَّعَنِي
عَلَى ذَلِكَ هُدُوهُ الْبَحْرُ وَانْخِفَاضُ الْمَدِّ .

وَكَانَتِ الْحَرَارَةُ شَدِيدَةً وَقْتَ الظَّهِيرَةِ ؛ فَخَلَعْتُ ثِيَابِي ، وَسَبَخْتُ
فِي الْمَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ السَّفِينَةَ . وَدُرْتُ حَوْلَهَا ؛ فَلَمْ أَجِدْ وَسِيلَةً
لِلصُّمُودِ إِلَيْهَا لِارْتِفَاعِهَا . وَقَدْ كَذْتُ أَيَّامًا مِنْ إِدْرَاكِ هَذِهِ الْغَايَةِ ،
لَوْلَا أَنَّي ظَفَرْتُ بِحَبْلِ مُتَدَلٍّ ؛ فَتَعَلَّقْتُ بِهِ حَتَّى صَعِدْتُ إِلَى ظَهْرِ
السَّفِينَةِ بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ . وَرَأَيْتُ الْمَاءَ قَدْ نَفَذَ إِلَى أَرْضِ السَّفِينَةِ ؛
وَلَكِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ سَطْحَهَا ، وَلَمْ يُثَلِّفْ كُلَّ مَا تُحْوِيهِ مِنْ مَثُونَةٍ
وَذَخَائِرٍ . وَكَانَ أَوَّلَ مَا يَشْغَلُنِي - حِينَئِذٍ - هُوَ الْبَحْثُ عَنِ
الطَّعَامِ وَالْمَاءِ . فَأَكَلْتُ مِنَ الزَّادِ حَتَّى شَبِعْتُ ، وَشَرِبْتُ مِنَ الْمَاءِ
حَتَّى ارْتَوَيْتُ .

٧ - المَرْكَبُ الصَّغِيرُ

وَلَمْ أَضِعْ وَقْتِي عَبَثًا . فَأَسْرَعْتُ إِلَى جَمْعِ الْأَلْوِاجِ الْمُتَنَائِرَةِ ،
وَالْأَعْمِدَةِ الْمُحَطَّمَةِ ،
وَالْأَشْرَعَةِ الْمُمَزَّقَةِ ،
وَأَلْفَتْ مِنْهَا مَرْكَبًا
صَغِيرًا . ثُمَّ كَسَرْتُ
ثَلَاثَةَ صَنَادِيقٍ
وَأَفْرَعْتُ مَا فِيهَا .
ثُمَّ أَنْزَلْتُهَا بِالْجِبَالِ
إِلَى ذَلِكَ الْمَرْكَبِ
الصَّغِيرِ ، وَمَلَأْتُهَا

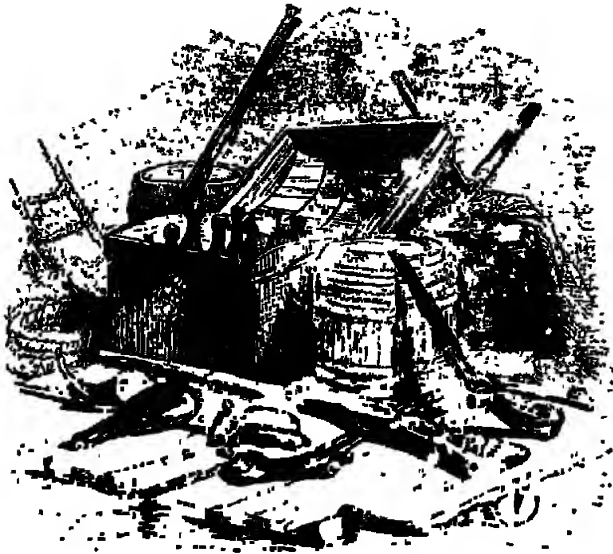


بِالْخُبْزِ وَالرُّزِّ وَالْجُبْنِ وَالْقَدِيدِ^(١) وَرَأَيْتُ فِي الْمَخْزَنِ
كَمِيَّةً قَلِيلَةً مِنَ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ وَالْبُرْغُلِ ، كُنَّا قَدْ
أَخْضَرْنَاهَا لِتَغْذِيَةِ طُيُورِنَا وَدَوَاجِنِنَا ؛ فَوَضَعْتُهَا فِي أَحَدِ الصَّنَادِيقِ .

(١) اللحم اليابس المحفوظ .

وَأِنِّي لَمُنْهَمِكَ فِي عَمَلِي ، إِذْ لَاحَتْ مِنِّي التِّفَافَةُ ؛ فَرَأَيْتُ أَلَمَدَّ
يَرْتَقِعُ إِلَى الشَّاطِئِ وَيَجْذِبُ ثِيَابِي الْفَرِيقَةَ . وَقَدْ تَأَلَّمْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا
طَاقَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ .

عَلَى أَنَّنِي رَأَيْتُ فِي السَّفِينَةِ — مِنَ الثِّيَابِ — مَا عَوَّضَنِي عَنْهَا .
فَأَخَذْتُ مِنْهَا مَا اسْتَطَعْتُ ،
وَحَمَلْتُ مَعِيَ — مِنْ
الْآلَاتِ وَالْمُعِدِّ — مَا لَا غِنَى
لِيَ عَنْهُ . وَقَدْ ظَفِرْتُ
بِصُنْدُوقِ نَجَّارٍ ؛ فَكَانَ
عِنْدِي أَثْمَنَ مِنْ كُنُوزِ
الْأَرْضِ قَاطِبَةً ^(١) ، فَأَلْقَيْتُ
بِهِ فِي الْمَرْكَبِ الصَّغِيرِ .



وَوَظَفِرْتُ — فِي أَثْنَاءِ بَحْثِي — بِمُسَدَّسَيْنِ وَبُنْدُقَتَيْنِ وَسَيْفَيْنِ قَدِيمَيْنِ يَمْلُوهَا

(١) جِمْأ .



الصدأ، وكيسٍ مِنَ الرصاص،
وعِدَّةٌ أَكياسٍ مِنَ البارودِ .
وَكَانَ بِالسَّفِينَةِ بَرَامِيلُ
ثَلَاثَةٌ مَمْلُوءَةٌ بَارُودًا، فَبَحَثُ
عَنْهَا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَيْهَا ؛
فَرَأَيْتُ الْمَاءَ قَدْ أَتْلَفَ بِرَمِيْلَا
مِنْهَا . فَحَمَلْتُ الْبَرَمِيلَيْنِ
الْبَاقِيَيْنِ إِلَى الْمَرْكَبِ ، وَلَمْ
يَبْقَ عَلَيَّ إِلَّا أَنْ أَذْهَبَ
بِرَكَبِي إِلَى الشَّاطِئِ . وَظَفَرْتُ
— بَعْدَ بَحْثٍ طَوِيلٍ —

بِثَلَاثَةِ مَجَادِيفٍ مُحَطَّمَةٍ ، وَمِنْشَارَيْنِ وَمِطْرَقَةٍ ؛ فَاسْتَوَدَعْتُهَا سَفِينَتِي ^(١) .
وَحَمَلَنِي الْمَدُّ إِلَى الشَّاطِئِ ، حَيْثُ أَتَّهَى بِي إِلَى مَكَانٍ لَا يَبْعُدُ
كَثِيرًا عَنِ الْمَكَانِ الَّذِي حَلَلْتُ فِيهِ أَمْسٍ .

(١) حَفَلْتُهَا فِيهَا .

الفصل الرابع

الوطن الجديد

١ - عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ

كَانَ أَوَّلَ مَا عُنِيتُ بِهِ أَنْ أَرْتَادَ^(١) هَذِهِ الْأَرْضَ الْمَجْهُولَةَ الَّتِي
قَذَفْتَنِي إِلَيْهَا الْقَادِرُ ، لَعَلِّي أَهْتَدِيَ إِلَى مَسْكَنِ آوِي إِلَيْهِ .
وَكُنْتُ - حِينَئِذٍ - أَجْهَلُ كُلِّ شَيْءٍ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ . فَلَمْ أَكُنْ
أَعْرِفُ : هَلْ قَذَفْتَنِي الْأَمْوَاجُ إِلَى جَزِيرَةٍ أَمْ قَارَةٍ ؟ إِلَى أَرْضٍ مَأْهُولَةٍ ،
أَمْ مُوحِشَةٍ ؟ إِلَى مَكَانٍ أَمِينٍ مُظْمِئٍ ، أَمْ مَخُوفٍ مَرْهُوبٍ ؟ إِلَى أَرْضٍ
يَقُطْنَهَا الْمُتَحَضِّرُونَ ، أَمْ الْهَمَجُ ، أَمْ الْوُحُوشُ الْمُفْتَرِسَةُ ؟
وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي أَنْحَائِهَا ؛ فَرَأَيْتُ جَبَلًا شَاهِقًا يُلُوحُ لِي عَلَى
مَسَافَةٍ مِيلٍ تَقْرِيْبًا . فَأَخَذْتُ بُنْدُقيَّةً وَمُسَدَّسًا ، وَسِرْتُ حَتَّى بَلَغْتُهُ .
فَرَأَيْتُهُ وَغَرَ الْمُرْتَقَى^(٢) ، وَلَمْ أَبْلُغْ قِمَّتَهُ إِلَّا بَعْدَ عَنَاءٍ شَدِيدٍ .

(١) أُنْعَب . (٢) صَعِبَ الْمَسِيرُ .

وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الْحُزْنُ وَالْأَلَمُ ، إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ الَّذِي حَلَمْتُهُ لَيْسَ إِلَّا جَزِيرَةً . وَكُنْتُ — كَيْفَمَا أَدْرْتُ لِحَاظِي — لَا أَجِدُ إِلَّا الْبَحْرَ يَكْتَنِفُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ^(١) ، وَشَبَحَ جَزِيرَتَيْنِ صَغِيرَتَيْنِ تَلُوحَانِ لِي عَلَى بُعْدٍ ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ غَرْبًا .

وَرَأَيْتُ أَنَّ الْجَزِيرَةَ الَّتِي حَلَمْتُهَا عَازِبَةٌ^(٢) ، قَرَأْتُ غَيْرَ مَأْهُولَةٍ^(٣) ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيهَا وَحُوشٌ مُفْتَرَسَةٌ . أَمَّا الْإِنْسُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى وَجُودِهِمْ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْمُجْدِبَةِ الْقَاحِلَةِ^(٤) .

٢ — الطَّلَقَةُ الْأُولَى

عَلَى أَنِّي رَأَيْتُ جَمَهْرَةً^(٥) مِنَ الطُّيُورِ الْقَرِيبَةِ — وَأَنَا عَائِدٌ إِلَى حَيْثُ جِئْتُ — فَصَوَّبْتُ بُنْدُقِيَّ إِلَى طَائِرٍ مِنْهَا كَانَ عَلَى شَجَرَةٍ مِنْ أَشْجَارِ الْغَابَةِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي .

وَلَعَلَّ هَذِهِ هِيَ أَوَّلُ مَرَّةٍ تُطْلَقُ فِيهَا بُنْدُقِيَّةٌ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ! وَقَدْ ذُعِرَتِ الطُّيُورُ حِينَ سَمِعَتْ هَذِهِ الطَّلَقَةَ الْمَفْزَعَةَ ، وَاشْتَدَّ

(١) يحيط بها . (٢) بعيدة . (٣) لا يسكها أحد .

(٤) التي لا نبات فيها . (٥) جماعة .

ارْتَبَاكُهَا ، وَعَلَتْ صَيْحَاتُهَا . وَرَأَيْتُ هَذَا الطَّائِرَ يُشَبِّهُ الْبَاشِقَ ، وَإِنْ
كَانَ قَلِيلَ اللَّحْمِ ، لَا يُسَمِّنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

٣ - كُوخٌ مِنْ صَنَادِيقَ

ثُمَّ عُدْتُ أَذْرَاجِي^(١) ، وَظَلَلْتُ أَفْرِغُ مَا أَخْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ
وَأَرْتَبُهُ ، حَتَّى انْقَضَى النَّهَارُ ، وَأَقْبَلَ اللَّيْلُ ؛ فَلَمْ أَذِرْ كَيْفَ أَنَامُ
مُطْمَئِنًّا ، آمِنًا مِنْ غَارَةِ الْوُحُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ ؟ ثُمَّ اهْتَدَيْتُ - بَعْدَ
افْتِكَارٍ طَوِيلٍ - إِلَى طَرِيقَةٍ نَاجِحَةٍ ؛ فَأَذْنَيْتُ^(٢) الصَّنَادِيقَ الَّتِي
أَخْضَرْتُهَا مِنَ السَّفِينَةِ ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ مِنْهَا كُوخًا آوِي إِلَيْهِ فِي تِلْكَ
الَّيْلَةِ . وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى حِبَالِ السَّفِينَةِ وَأَشْرَعْتُهَا ؛ فَتَوَيْتُ الذَّهَابَ
إِلَيْهَا فِي الْيَوْمِ التَّالِي وَقَدْ انْخِفاضَ الْمَدِّ ، قَبْلَ أَنْ تُفْرِقَهَا أَوَّلُ عَاصِفَةٍ
تَهْبُ عَلَيْهَا مِنَ الْبَحْرِ .

٤ - عَوْدَةٌ إِلَى السَّفِينَةِ

وَلَمَّا جَاءَ الْغَدُ خَلَمْتُ مَلَابِيسِي إِلَّا قَمِيصًا مُزَقًّا وَسِرْوَالًا وَنَعْلًا خَفِيفَةً ،

(١) رجعت من حيث أتيت . (٢) قربت .

وذهبتُ إلى السفينة ، وأحضرتُ منها كثيراً من الدُّخَانِ ^(١) التي
كُنْتُ فِي أَشَدِّ الْحَاجَةِ إِلَيْهَا . وقد ظفِرتُ بِغِرَارَتَيْنِ ^(٢) مملوءَتَيْنِ
مَسَامِيرَ ، كما ظفِرتُ بِمِدَّةِ النَّجَارَةِ ، وفيها مِسَنٌ ، واثنتا عَشْرَةَ
قُدُومًا ، وغيرُ ذلك . وجمعتُ كلَّ ما وجدتهُ - مِنَ الثِّيابِ وأشُرَعِ
السَّفِينَةِ وَالْأَغْطِيَةِ - وعُدتُ إلى كُوخِي الصَّغِيرِ . وقد شَجَعَنِي هَذَا النَّجَاحُ ،
وَأَكْسَبَنِي قُوَّةً وَنَشَاطًا عَظِيمَيْنِ . وَكُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَلْتَهُمَ بَعْضُ الْوُحُوشِ
مَا تَرَكَتُهُ مِنَ الزَّادِ ^(٣) ، وَلِكِنِّي أَطْمَأْنَنْتُ - بَعْدَ عَوْدَتِي - وَزَالَتْ
مَخَافِي ؛ إِذْ لَمْ أَغْزُ لَهُذِهِ الْوُحُوشِ عَلَى أَثَرٍ . عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ حَيَوَانًا
- أَشْبَهَ شَيْءًا بِالْقِطِّ - جَالِسًا عَلَى أَحَدِ الصَّنَادِقِ . وَمَا رَأَيْتُ حَتَّى فَرَ
مِنِّي ، ثُمَّ وَقَفَ عَلَى بُعْدِ خُطُواتِ قَلِيلَةٍ ، وَظَلَّ يُنْعِمُ ^(٤) نَظَرَهُ فِيَّ مِنْ
غَيْرِ أَنْ يَبْذُو عَلَى مَلَامِحِهِ الْخَوْفُ . فَصَوَّبْتُ إِلَيْهِ بُنْدُقِي ، فَلَمْ
يَتَحَرَّكْ ، وَلَمْ يُحَاوِلِ الْفِرَارَ . فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِ قِطْمَةً مِنَ الْخُشْكَانِ ^(٥) ،
فَاقْتَرَبَ مِنْهَا وَشَمَّهَا وَتَذَوَّقَهَا ، ثُمَّ ابْتَلَمَهَا مِنْ فُورِهِ ، وَبَدَأَ عَلَى مَلَامِحِهِ
السُّرُورَ . فَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَطْلُبُ غَيْرَهَا ، فَلَمْ أُعْطِهِ شَيْئًا ، لِأَنِّي زَادِي قَلِيلٌ ،

(١) الْأَشْيَاءُ الثَّمِينَةُ الْمَحْفُوظَةُ . (٢) زَكِيَّتَيْنِ . (٣) الطَّعَامُ الَّذِي يَتَخَذُ لِلْفَرِّ .

(٤) يَدْفِقُ . (٥) السَّكُوتِ .

وَلَيْسَ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ أُسْرِفَ^(١) فِي الْأَخْذِ مِنْهُ .
وَلَمَّا يَتَسَّ الْقِطُّ مِنْ عَطَائِي ، ذَهَبَ إِلَى سَبِيلِهِ !

٥ - إِعْدَادُ الْمَسْكَنِ

وَفَكَّرْتُ فِي إِعْدَادِ مَسْكَنِ يُوْمُنُنِي مِنَ الْوُحُوشِ ، وَيَحْفَظُ أَمْتِي
مِنَ التَّلَفِ ، وَيَقِيهَا غَائِلَةَ الْأَمْطَارِ وَحَرَارَةَ الشَّمْسِ . فَبَنَيْتُ خِيْمَةً
مِنَ الشَّرَاجِ الَّذِي أَخْضَرْتُهُ ، وَبَتَّهَا بِالْأَوْتَادِ^(٢) ، وَوَضَعْتُ فِي تِلْكَ
الْخِيْمَةِ كُلَّ مَا أَخْضَرْتُهُ مِنَ السَّفِينَةِ . ثُمَّ سَوَّرْتُ الْخِيْمَةَ^(٣)
بِالصَّنَادِيقِ وَالْبَرَامِيلِ ، وَسَدَدْتُ بَابَهَا مِنَ الدَّاخِلِ بِالْأَوَاجِ مِنَ الْخَشَبِ ،
وَوَضَعْتُ خَلْفَهَا صُنْدُوقًا فَارِغًا . ثُمَّ وَضَعْتُ مُسَدَّسَيْنِ تَحْتَ وَسَادَتِي ،
وَنَيْتُ أَهْدَأَ مَا أَكُونُ بِأَلَا حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ .

٦ - ذَخَائِرُ السَّفِينَةِ

وَلَقَدْ شَعَرْتُ أَنَّي حَصَلْتُ عَلَى مَا يَكْفِينِي ، بَلْ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي .

(١) أَكْثَرُ . (٢) قَطَعَ مِنَ الْخَشَبِ وَنَحْوَهُ مُثَبَّتَةً فِي الْأَرْضِ . (٣) جَعَلْتُ لَهَا سَوْرًا .

ولَـكِنَّ بَقَاءَ السَّفِينَةِ أَطْمَعَنِي فِي الْحُصُولِ عَلَى كُلِّ ذَخَائِرِهَا ، مَا دُمْتُ قَادِرًا عَلَى الْذَّهَابِ إِلَيْهَا ، فَلَمْ يَهْدَأْ لِي بَالٌ ، وَلَمْ يَقَرَّ لِي قَرَارٌ . وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى التَّزَوُّدِ^(١) مِنْهَا كُلِّ يَوْمٍ . وَقَدْ ذَهَبْتُ إِلَيْهَا — بَعْدَ ذَلِكَ — سِتَّةَ أَيَّامٍ مُتَمَاعِبَةً^(٢) ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي قَدْ أَفْرَغْتُ كُلَّ مَا فِيهَا مِنْ زَادٍ وَذَخَائِرٍ . وَلَكِنِّي دَهَشْتُ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ ؛ إِذْ وَجَدْتُ بِرَمِيْلٍ كَثِيرًا مَمْلُوءًا خُشْكَانًا^(٣) . فَأَفْرَغْتُهُ ، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُهُ فِي قِطْعٍ مِنَ الْأَشْرَعَةِ ، ثُمَّ عُدْتُ إِلَى خِيَمَتِي مَسْرُورًا رَاضِيًا .

٧ — الزَّوْرَةُ الْأَخِيرَةُ

وَذَهَبْتُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي إِلَى السَّفِينَةِ — كَمَا دَرَيْتُ — وَلَكِنِّي شَعَرْتُ بِهَبُوبِ الرِّيحِ ، فَلَمْ أَبَالِ ، وَلَمْ أَنْتِ^(٤) عَنْ عَزِيمَتِي . وَقَدْ ظَفِرْتُ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ بِثَلَاثِ مَوَاسٍ^(٥) ، وَكَانَتْ فِي غُرْفَةِ الرُّبَّانِ ، كَمَا ظَفِرْتُ بِثَمَنَيْنِ صَغِيرَيْنِ وَعِدَّةٍ مَلَاعِقَ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَدَوَاتِ النَّافِعَةِ . ثُمَّ لَاحَتْ مِنِّي الثِّفَاتَةُ ، فَرَأَيْتُ سِتَّةَ وَثَلَاثِينَ جُذَيْنًا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

(١) الأخذ . (٢) متوالية . (٣) بسكويتة . (٤) لم أرجع .

(٥) جمع موسى ، وهي الآلة التي يخلق بها .

فَأَبْسَمْتُ - حَيْثُذِ - سَاخِرًا ؛ فَلَمْ تَكُنْ لِي بِهَذِهِ النُّقُودِ حَاجَةً فِي
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ . وَلَقَدْ هَمَمْتُ بِإِلْقَائِهَا فِي الْبَحْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ
عَنْ ذَلِكَ ، وَوَضَعْتُهَا فِي صُرَّةٍ مِنَ الْخَيْشِ . وَرَأَيْتُ السَّمَاءَ تَتَلَبَّدُ
بِالْغُيُومِ ؛ فَأَسْرَعْتُ بِالْعَوْدَةِ إِلَى كُوخِي . وَقَدْ لَقِيتُ عَنْاءَ شَدِيدًا فِي
مُغَالَبَةِ الْأَمْوَاجِ ، وَلَكِنِّي وَصَلْتُ إِلَى الشَّاطِئِ سَالِمًا بِحَمْدِ اللَّهِ .

٨ - غَرَقُ السَّفِينَةِ

وَمَا عُدْتُ إِلَى خِيَمَتِي حَتَّى عُنْفَتِ الرِّيحُ ، وَأَشْتَدَّ أَصْطِحَابُ
الْأَمْوَاجِ ، وَظَلَّ الْبَحْرُ مُضْطَرِبًا هَائِجًا طُولَ اللَّيْلِ .
وَلَمَّا أَقْبَلَ الصَّبَاحُ دُرْتُ بِالْحَاضِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ؛ فَلَمْ أَجِدْ
لِلْسَفِينَةِ أَثَرًا . فَعَلِمْتُ أَنَّ الْعَاصِفَةَ أَغْرَقَتْهَا ؛ فَلَمْ أَحْزَنْ عَلَيْهَا ، لِأَنِّي
لَمْ أَذْخِرْ وَشَعًا فِي نَقْلِ كُلِّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنْهَا فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ .

٩ - أَلَيْتُ الْجَدِيدُ

لَمْ يَنْقُ عَلَى - بَعْدَ ذَلِكَ - إِلَّا أَنْ أَفَكَّرَ فِي وَسِيلَةِ تَصُدُّ عَنِّي

غائلة المعتدين ، من بني الإنسان ، أو من الوحوش المفترسة . وظللت
أفكر في بناء البيت الذي أشيده ، ولم أدر : هل أحفر كهفاً أم أقيم
خيمة ؟ ثم قرّ رأيي على أن أجمع بينهما . ورأيت المكان الذي حلته
لا يصلح لإقامتي إقامة دائمة ؛ لأنه في أرض منخفضة سيخة^(١) وبقاي
فيه مضر بصحتي ، وهو - إلى ذلك - ليس قريباً من الماء العذب .
فبحثت عن مكان آخر أكثر ملاءمة لي . وهداني البحث إلى المكان
الذي أردت ؛ فقد وفقت إلى سهل صغير في سفح تل مرتفع صخري ،
وبجانبه ماء عذب ، وهو مشرف على البحر . وكان في أعلى ذلك التل
صخرة ناتئة^(٢) تقيني وهج الشمس ، وتحيني من اعتداء المغيرين ، من
إنس وحيوان . وكانت تلك الصخرة محفورة تشبه الكهف ؛ فبنيت
خيمتي أمامها ، وبنيت أوتادها ؛ وشعرت أنني أصبحت بئامن من كل اعتداء .
ولم أجعل لبنتي باباً أدخله ؛ بل سلماً أتسلقه . فإذا دخلت البيت رفعت
السلّم إلى داخله ، ونمت - طول ليلي - ناعم البال ، مطمئناً ، قريح العين .
ثم تقلت في هذا الحصن كل ما لدى من متاع وزاد وذخائر . ورفعت

(١) ذات نز وبلح . (٢) مرتفعة .

— فِي أَعْلَى الْمَسْكَنِ — سَقْفًا مُؤَلَّفًا مِنْ شِرَاعَيْنِ : أَحَدُهُمَا فَوْقَ الْآخَرِ ،
وَمَلَأْتُهُمَا بِالْقَارِ ^(١) ، ثُمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي إِلَى حَفْرِ مَكَانٍ فِي تِلْكَ الصَّخْرَةِ
لِيَكُونَ مَخْزَنًا

صَغِيرًا فِي مَنْزِلِي .

وَقَلَّاتُ جَادًا فِي عَمَلِي .

وَإِنِّي لَكَذَلِكَ إِذْ

بَرَقَ الْبَرْقُ وَرَعَدَ

الرَّعْدُ ؛ فَاشْتَدَّ

جَزَعِي ، وَخَشِيتُ

أَنْ يَشْتَمِلَ الْبَارُودُ ،

فَيَدْمِرَ كُلَّ شَيْءٍ فِي

لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .



وَتَمَّ وَجَّهْتُ هِمَّتِي كُلَّهَا إِلَى تَأْمِينِي ^(٢) مِنْ هَذَا الْخَطَرِ ؛ فَصَنَعْتُ
أَكْيَاسًا كَثِيرَةً ، وَوَضَعْتُ فِيهَا الْبَارُودَ ، وَفَرَّقْتُهَا فِي أَنْحَاءٍ مُتَبَاعِدَةٍ ؛

(١) الزفت . (٢) هناك . (٣) حفظي .

حَتَّى إِذَا اشْتَعَلَتِ النَّارُ فِي أَحَدِهَا لَمْ تَنْصِلْ بِغَيْرِهِ .
 وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ أَمِنْتُ أَنْ يَشْتَمِلَ كُلُّ مَا عِنْدِي مِنَ الْبَارُودِ مَرَّةً
 وَاحِدَةً . وَقَدْ أَنْجَزْتُ هَذَا الْعَمَلَ فِي خِلَالِ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا مُتَوَالِيَةً ،
 وَوَضَعْتُ الْبَارُودَ فِي مِائَةِ غِرَارَةٍ ^(١) أَخْفَيْتُهَا فِي مُتُوبِ الصَّخْرِ ، لِأَمْنٍ
 عَلَيْهَا الرُّطُوبَةَ . وَكَانَتْ ذَخِيرَتِي مِنَ الْبَارُودِ لَا يِقْلُ وَزْنُهَا عَنْ مِائَةِ
 وَأَرْبَعِينَ رِطْلًا . وَقَدْ اشْتَدَّ حَرَصِي عَلَيْهَا ، وَلَمْ يَزَلْ بِإِلَى إِلَّا بَعْدَ أَنْ
 وَثِقْتُ مِنْ سَلَامَتِهَا ، وَذَهَبَ خَوْفِي عَلَيْهَا مِنَ التَّلَفِ .

(١) زَكِيَّة .

الفصل الخامس

الزَّلْزَالُ

١ - جِداءُ الجَزِيرَةِ

لَمْ أَكْفَ عَنْ الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ إِلَّا فِي فتراتٍ قَلِيلَةٍ ، كُنْتُ
أَخْرُجُ - فِي أُمْنَائِهَا -
مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ فِي
كُلِّ يَوْمٍ ، لِأَرْوَحَ
عَنْ نَفْسِي مِنْ عَنَاءِ
الْعَمَلِ ، أَوْ لِأَصْطَادَ
بَعْضَ الْحَيَوَانِ لِمَعْدَائِي ،
أَوْ لِأَرْتَادَ أَنْحَاءِ
الْجَزِيرَةِ الْمَجْهُولَةِ .



وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصَرِي

— فِي أَوَّلِ يَوْمٍ — مَا بِالْجَزِيرَةِ مِنْ جَدْيَانِ ، وَابْتَهَجْتُ حِينَ رَأَيْتُهَا .
 وَلَكِنْ فَرَحِي لَمْ يَطْلُ ؛ لِأَنِّي رَأَيْتُهَا مُتَوَحِّشَةً مَا كِرَةً سَرِيعَةً
 الْعَدُو ، لَا أَكَادُ أَقْتَرِبُ مِنْهَا حَتَّى تَفِرَّ هَارِبَةً . وَقَدْ حَاوَلْتُ أَنْ
 أَضْطَادَ جَدْيًا مِنْ هَذِهِ الْجِدَاءِ ، فَلَمْ أَسْتَطِعْ ؛ لِسُرْعَتِهَا وَخِفَّتِهَا . وَلَكِنْ
 الْيَأْسَ لَمْ يَغْلِبْنِي عَلَى أَمْرِي ، وَظَلَلْتُ أُرَاقِبُ حَرَكَاتِهَا فِي رَوْحَاتِهَا
 وَجَنَائِهَا ؛ فَرَأَيْتُهَا تَفْزَعُ مِنِّي هَارِبَةً ، إِذَا أَقْبَلْتُ عَلَيْهَا مِنَ الْوَادِي
 وَكَانَتْ فَوْقَ الصُّخُورِ . فَإِذَا كُنْتُ أَنَا فَوْقَ الصُّخُورِ وَكَانَتْ هِيَ
 فِي الْوَادِي تَرْعَى ، لَمْ تَتَحَرَّكْ ، وَلَمْ تَشْعُرْ بِمَقْدَمِي . فَعَلِمْتُ أَنَّ
 بَصَرَهَا مُنْصَرِفٌ إِلَى أَسْفَلَ ، فَهِيَ لَا تَرْفَعُهُ إِلَى فَوْقِ ؛ وَثُمَّ لَا تَرَى
 مَا فَوْقَهَا . وَرَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ وَسِيلَةٍ تُسَكِّنُنِي مِنْ اقْتِنَاصِهَا^(١) بِسُهُولَةٍ ،
 هِيَ أَنْ أَشْرِفَ عَلَيْهَا مِنْ فَوْقِ تِلْكَ الصُّخُورِ ، وَأَصَوَّبَ رِصَاصِي إِلَيْهَا .
 وَقَدْ نَجَحْتُ هَذِهِ الْحِيلَةَ ، وَأَصَابْتُ أَوَّلَ طَلْقَةٍ مِنْ بُنْدُوقِي مَاعِزًا فَقَتَلْتُهَا .
 وَكَانَ مَعَهَا جَدْيٌ صَغِيرٌ ؛ فَحَمَلْتُهَا عَلَى كَتِفِي ، وَتَبَعَنِي صَغِيرُهَا حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى
 مَسْكَنِي . وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي مُلَاطَفَةِ الْجَدْيِ لَعَلَّهُ يُسْتَأْنَسُ بِي ؛ فَلَمْ أَفْلِحْ .

وَقَدْ أَبَى أَنْ يَأْكُلَ مَا قَدَّمْتُهُ لَهُ مِنْ الطَّعَامِ ؛ فَاضْطُرِرْتُ إِلَى ذَبْحِهِ وَأَكْلِهِ .

٢ - مُذَكَّرَاتُ يَوْمِيَّةٍ

وهكذا استطعتُ أَنْ أَنْظِمَ حَيَاتِي - مُنْذُ وَخِلْتُ^(١) قَدَمَايَ تِلْكَ
الْجَزِيرَةَ النَّائِيَةَ الْفَقْرَ^(٢) - لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ
الْمُتَمِّمِ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبَرِ » . وَكَانَ الْوَقْتُ
خَرِيفًا ، وَحَرَارَةُ الشَّمْسِ مُحْتَمَلَةً .

وَكَانَتِ الْجَزِيرَةُ الَّتِي
حَلَلْتُهَا وَاقِعَةً عَلَى الدَّرَجَةِ
التَّاسِعَةِ مِنْ شِمَالِ خُطِّ
الِاسْتِوَاءِ تَقْرِيبًا .

وَمَا مَرَّ عَلَى عَشْرَةِ
أَيَّامٍ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ
أُنْسَى تَوَارِيخَ الْأَيَّامِ .



(٢) الخالية .

(١) داست .

وَلَمْ يَكُنْ عِنْدِي كُرْاسَةٌ وَلَا وَرَقٌ وَلَا مِدَادٌ ، فَلَمْ أَعْرِفْ كَيْفَ أَدَوُّنُ
لِلْأَيَّامِ تَارِيخَهَا . وَبَعْدَ أَفْكَارٍ طَوِيلٍ أَقَمْتُ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ جِدْعًا
مُرَبَّعًا مِنَ الْخَشَبِ ، وَحَفَرْتُ فِيهِ مَا يَأْتِي :

« حَلَلْتُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ فِي ٣٠ مِنْ سِبْتَمْبَرِ سَنَةِ ١٦٥٨ م . »

ثُمَّ أَخَذْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ أَخْفِرَ خَطًّا صَغِيرًا فِي كُلِّ يَوْمٍ . فَإِذَا
انْتَهَى الْأُسْبُوعُ حَفَرْتُ خَطًّا مُزْدَوِجًا . فَإِذَا انْتَهَى الشَّهْرُ حَفَرْتُ مُرَبَّعًا
صَغِيرًا . وَقَدْ تَمَكَّنْتُ بِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ مِنْ تَعْرِفِ أَيَّامِ الْأُسْبُوعِ وَالشَّهْرِ
وَالسَّنَةِ ، وَأَمِنْتُ الْخَطَأَ وَالنَّسْيَانَ .

٣ - الْأَصْدِقَاءُ الْأَوْفِيَاءُ

فَاتَنِي أَنْ أَذْكُرُ لِلْقَارِئِ أَنَّ السَّفِينَةَ - الَّتِي غَرِقَتْ - كَانَ بِهَا
قِطَانٌ وَكَلْبٌ . وَقَدْ كَتَبَ عَلَيْهَا الْقَدَرُ أَنْ تَكُونَ قِصَّتُهَا مُتَرَجِّمَةً
بِقِصَّتِي . فَقَدْ أَخْضَرْتُ الْقِطْلَيْنِ مَعِيَ ، وَقَفَرَزَ الْكَلْبُ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى
الْبَحْرِ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الشَّاطِئِ سَبَاحَةً ، وَلَعِقَ بِي فِي الْيَوْمِ التَّالِي .
وَقَدْ ظَلَّ الْكَلْبُ الْوَفِيُّ الْأَمِينُ يَخْدُمُنِي عِدَّةَ سَنَوَاتٍ .

وكان دَقِيقَ المَلاحَظَةِ ، حادَّ الذِّكَا ، أَشْبَهَ بِالخَادِمِ الذَّكِيِّ الحَاضِرِ^(١)
 وكانَ - في الحَقِيقَةِ - خَيْرَ صَدِيقٍ وخَادِمٍ لِي . وَقَدْ أُعْجِبْتُ
 بِذَكَائِهِ وَفِطْنَتِهِ وَدِقَّةِ مُلاحَظَتِهِ ، فَقَدَّرْتُ أَيْتُهُ :
 فِي كُلِّ شَيْءٍ يُشْبِهُهُ إِلَّا فِي الْكَلَامِ

٤ - أَثَابُ النِّيتِ

ذَكَرْتُ لِلْقَارِئِ أَنَّنِي تَقَلْتُ ذَخَائِرِي وَزَادَنِي إِلَى نِيَّتِي الجَدِيدِ .
 وَقَدْ وَضَعْتُهَا - أَوَّلَ الْأَمْرِ - عَلَى غَيْرِ تَرْتِيبٍ ؛ فَشَغَلَتْ مِنْ نِيَّتِي فَرَاغًا
 كَبِيرًا ، حَتَّى صَعُبَ عَلَيَّ أَنْ أَجِدَ فِيهِ مُتَسَمًا لِلحَرَكَةِ . فَمَعَدْتُ إِلَى حَفْرِ
 المَغَارَةِ لِتَوْسِيعِهَا . وَقَدْ وَالَيْتُ الْعَمَلَ - فِي ذَلِكَ - أَيَّامًا حَتَّى وَفَّقْتُ
 إِلَى غَايَتِي . ثُمَّ عَنْ^(٢) لِي أَنْ أَصْنَعَ أَهَمَّ مَا أحتاجُ إِلَيْهِ مِنْ أَثَابِ الدَّارِ ؛
 فَبَدَأْتُ بِصُنْعِ كُرْسِيِّ وَمَائِدَةٍ . وَقَدْ أَكْسَبَنِي الْعَمَلُ المُتَوَاصِلُ مَرَانَةً نَادِرَةً
 سَهَّلَتْ عَلَيَّ صُنْعَ كُلِّ مَا يُعَوِّزُنِي مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ .
 وَقَدْ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَصْنَعَ كَثِيرًا مِنَ الْأَثَابِ ، دُونَ أَنْ أُسْتَعِينَ

عَلَى ذَلِكَ بِغَيْرِ قَدُومٍ وَمَسْحَجٍ^(١). فَإِذَا عَنَّ إِلَى أَنْ أَصْنَعَ لَوْحًا، قَطَعْتُ
الشَّجَرَةَ بِالْقَدُومِ، وَطَرَحْتُ جَذْعَهَا عَلَى الْأَرْضِ، ثُمَّ هَذَّبْتُ مِنْ
جَانِبَيْهِ حَتَّى يَصِلَ سَمْكُهُ إِلَى الْحَدِّ الَّذِي أُرِيدُ. فَإِذَا تَمَّ لِي ذَلِكَ صَقَلْتُهُ^(٢)
بِمَسْحَجِي.

وَكَانَ الْقَدُومُ وَالْمَسْحَجُ خَيْرَ مِعْوَانٍ^(٣) لِي عَلَى إِنْجَازِ كَثِيرٍ مِنْ أَمَانٍ
الْبَيْتِ. وَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِي أَنْ أَصْنَعَ أَكْثَرَ مِنْ لَوْحٍ وَاحِدٍ مِنْ كُلِّ
شَجَرَةٍ كَامِلَةٍ. عَلَى أَنِّي لَجَأْتُ إِلَى الصَّبْرِ، وَلَمْ يَكُنْ لِي مَنُذُوحَةٌ^(٤)
عَنْهُ. وَقَدْ بَدَأْتُ بِعَمَلِ كُرْمِي وَمَائِدَةٍ، ثُمَّ صَنَعْتُ أَلْوَحًا كَثِيرَةً،
ثُمَّ ثَبَّتُ فِي الصَّخْرِ مَسَامِيرَ لَوَلِيَّةٍ^(٥)، لِأُعَلِّقَ عَلَيْهَا بَنَادِقِي وَثِيَابِي.
وَبَذَلْتُ جُهْدِي فِي إِنْجَازِ كُلِّ مَا أَسْتَخَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْفُرُورِيَّاتِ.

٥ - شَحْمُ الْجِلْدِ

وَكَانَ يُعَوِّزُنِي - وَمَا أَكْثَرَ مَا كَانَ يُعَوِّزُنِي حِينَئِذٍ - السَّمْعُ.
وَكَانَ فَقْدَانُهُ يَضْطَرُّنِي إِلَى مُلَازِمَةِ فِرَاشِي كُلَّمَا أَقْبَلَ اللَّيْلُ.

(١) آلة يصقل بها الخشب . (٢) أنميته . (٣) مساعد .
(٤) بد وسعة . (٥) ملواة .

وَقَدْ فَكَّرْتُ فِي ذَلِكَ طَوِيلًا حَتَّى اهْتَدَيْتُ إِلَى حَلِّ هَذِهِ الْمَشْكَلَةِ ؛
فَحَرَصْتُ عَلَى شَحْمِ الْجِدَاءِ الَّتِي كُنْتُ أَذْبَحُهَا ، ثُمَّ جَفَفْتُهُ فِي أَشِعَّةِ الشَّمْسِ .
وَوَضَعْتُ فِي وَسْطِ كُلِّ قِطْعَةٍ مِنَ الشَّحْمِ قَتِيلًا أَخْرَجْتُهُ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي
عِنْدِي ؛ حَتَّى إِذَا تَمَّ صُنْعُ الشَّمْعِ خَلَفَرْتُ بِالضَّوْءِ كَيْلًا ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ
أَقْضِي لَيْالِي فِي ظِلَامٍ حَالِكٍ .

٦ - سَنَابِلُ الشَّعِيرِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ دَائِبًا^(١) عَلَى الْعَمَلِ ؛ فَأَسْتَرْعَى أَنْتِبَاهِي كَيْسُ
الْحُبُوبِ الَّذِي أَخْضَرْتُهُ مَعِيَ مِنَ السِّفِينَةِ الْمُحَطَّمَةِ ، فَرَأَيْتُ الْقَارَةَ قَدْ
الْتَهَمَتْهُ حَتَّى لَمْ تَكَدْ تُبْقِ مِنْهُ إِلَّا الْقُشُورَ . فَأَفْرَغْتُ الْكَيْسَ مِنْهَا عِنْدَ
سَفْحِ الصَّخْرَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ كَهْفِي ، لِأَتَنْفِيعَ بِالْكَيْسِ فِي قَضَاءِ مَآرِبٍ^(٢)
أُخَرِ . وَبَعْدَ قَلِيلٍ ، هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ ، وَرَوَّتِ الْأَرْضَ ، ثُمَّ نَسِيتُ كُلَّ
مَا حَدَثَ بَعْدَ ذَلِكَ .

وَمَا رَأَيْتُ شَهْرًا وَاحِدًا تَقْرِيْبًا حَتَّى أَذْهَشَنِي مَا رَأَيْتُهُ — عِنْدَ سَفْحِ
الصَّخْرَةِ — مِنَ السُّوقِ النَّامِيَةِ فِي الْأَرْضِ .

(١) مجتهداً . (٢) إنجاز حاجات .



وَقَدْ كُنْتُ أَحْسَبُهَا - أَوَّلَ الْأَمْرِ - نَبَاتَاتٍ
مَجْهُولَةً . ثُمَّ ظَهَرَ لِي خَطَأُ هَذَا الظَّنِّ - بَعْدَ
زَمَنِ قَلِيلٍ - حِينَ رَأَيْتُ أَثْنَتَيْ عَشْرَةَ
سُنْبُلَةً مِنَ الشَّعِيرِ الْأَخْضَرِ .

وَقَدْ أَشْتَدَّتْ دَهْشَتِي - حِينَئِذٍ -
وَلَمْ أَقْصُرْ فِي تَعَاهِدِهَا بِالْعِنَايَةِ ،
وَحَصْدِهَا فِي مَوْسِمِ الْحَصَادِ ،
وَهُوَ آخِرُ شَهْرِ « يُنَيْسَةَ » .
وَقَدْ جَنَيْتُهَا بِعِنَايَةٍ نَادِرَةٍ ؛

فَلَمْ أَهْمِلْ مِنْهَا حَبَّةً وَاحِدَةً ، ثُمَّ بَذَرْتُهَا - بَعْدَ ذَلِكَ - فِي مَوْسِمِ
الْبَذْرِ . وَلَا حَاجَ لِي أَمَلٌ كَبِيرٌ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْخُبْزِ بَعْدَ زَمَنِ قَلِيلٍ .
وَمَا مَرَّتْ عَلَيَّ أَرْبَعُ سَنَوَاتٍ حَتَّى أَصْبِحَ عِنْدِي - مِنَ الشَّعِيرِ -
مَا يَكْفِي لِغِدَائِي وَزَرْعِ حَقْلِي الْجَدِيدِ .

٧ - زَلْزَالُ الْجَزِيرَةِ

وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ الْيَوْمَ السَّابِعَ مِنْ « أُبْرَيْلَ » عَامَ سِتِّينَ
وَسِتِّمِائَةٍ وَأَلْفٍ : فَقَدْ كَانَ يَوْمًا هَائِلَ النَّبَاِ ، مُرَوِّعَ الْخَبَرِ ، وَقَدْ
أَيَقَنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ أَنَّ آخِرَتِي دَنَتْ ، وَأَنَّ مَصْرِعِي وَشِيكَ^(١) .
وَرَأَيْتُ كُلَّ مَا أَتَمَّمْتُهُ - مِنْ عَمَلٍ - يَكَادُ يَنْهَارُ^(٢) أُمَامِي فِي
لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ .

كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مُنْهَمِكًا^(٣) فِي أَعْمَالِي ، دَاخِلَ خَيْمَتِي . وَإِنِّي
لَكَذَلِكَ إِذْ وَجَدْتُ الْأَرْضَ تَهْبِطُ وَتَضَعُدُ . وَشَعَرْتُ بِاضْطِرَابِ
الصُّخُورِ الَّتِي تَكْتَنِفُنِي^(٤) ، وَسَمِعْتُ فَرْقَمَةً وَجَلْجَلَةً شَدِيدَتَيْنِ ،
وَلَمْ أَغْرِفْ مَعْدَرَ هَذِهِ الْكَوَارِثِ . وَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ ، وَخَشِيتُ
أَنْ أُدْفَنَ حَيًّا ؛ فَصَعِدْتُ السُّلَّمِ ، وَخَرَجْتُ مِنْ خَيْمَتِي مُسْرِعًا ، وَأَنَا
لَا أَكَادُ أَصَدِّقُ بِالنَّجَاةِ ؛ فَرَأَيْتُ أَرْضَ الْجَزِيرَةِ تَهْتَزُّ اهْتِزَازًا عَنِيفًا ،
فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الزَّلْزَالُ .

(١) هَلَكَى سَرَعَ إِلَى . (٢) يَسْفُطُ . (٣) جَادَأَ . (٤) سَحِيطَ بِي .

وَقَدْ اهْتَزَّتِ الْأَرْضُ تَحْتَ قَدَمَيَّ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مُتَعاقِبَةً^(١) ، وَكَانَ
بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ مِنْهَا ثَمَانِي دَقَائِقَ .

وَكَانَتْ تِلْكَ الْهَزَّاتُ قَوِيَّةً غَنِيْفَةً إِلَى حَدٍّ أَنْ هَوَتْ إِحْدَى
الصُّخُورِ الْقَرِيبَةِ مِنِّي ، وَلَمْ أَكُنْ أَبْعَدُ عَنْهَا أَكْثَرَ مِنْ مِثْرٍ وَنِصْفِ
مِثْرٍ ، وَسَمِعْتُ لِسُقُوطِهَا صَوْتًا هُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالرَّغْدِ . وَثَمَّةَ^(٢) عَقَدَ
الْخَوْفُ لِسَانِي ، وَكَادَ يَجْمَدُ الدَّمُ فِي عُرُوقِي ، مِنْ شِدَّةِ الْفَرَجِ .

وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّي أَنَّ الْأَرْضَ هَدَأَتْ ، وَسَكَنَ اضْطِرَابُهَا
بَعْدَ تِلْكَ الْهَزَّاتِ الثَّلَاثِ . فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي قَلِيلًا ، وَلَبِكَتْنِي لَمْ
أَجْزُؤْ عَلَى دُخُولِ خَيْمَتِي ؛ فَجَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَنَا لَا أَعْرِفُ
كَيْفَ أَصْنَعُ .

٨ - بَعْدَ الزُّلْزَالِ

وَأَكْفَهَرَتِ السَّمَاءُ^(٣) ، وَتَلَبَّدَتْ فَجَاءَةً بِالْغُيُومِ الْقَاتِمَةِ . وَهَبَّتِ
الرَّيْحُ عَاصِفَةً هَوَّجَاءً ؛ وَاضْطَجَبَ الْبَحْرُ ، وَأَصْطَفَقَتْ أَمْوَاجُهُ أَصْطِفَاقًا

(٢) اسودت .

(٢) هناك

(١) متوالية .

شَدِيدًا ، وَكَانَتْ تَصِلُ فِي ارْتِفَاعِهَا إِلَى مِثْلِ ارْتِفَاعِ الْجِبَالِ . وَظَلَّتِ
الْعَاصِفَةُ نَائِرَةً مُفْرِغَةً ثَلَاثَ سَاعَاتٍ ، ثُمَّ أَغْقَبَهَا الشُّكُونُ ، وَهَطَلَتْ
الْأَمْطَارُ الْغَزِيرَةُ ؛ فَحَسِبْتُهَا سَيُولَا تَهْمِي مِنَ السُّحُبِ الْمَتَكَاثِفَةِ .
وَظَلَّتِ السَّمَاءُ تُمَطِّرُنَا طُولَ اللَّيْلِ وَطَرَفًا مِنْ نَهَارِ الْيَوْمِ التَّالِي . وَكَانَ
شُغْلِي الشَّاعِلُ — حِينَئِذٍ — التَّفَكِيرَ فِي تَغْيِيرِ هَذَا الْمَنْزِلِ ، بَعْدَ حُدُوثِ
الزَّلْزَالِ . فَلَمْ يَكُنْ فِي وَسْطِي أَنْ أَطْمَئِنْتُ إِلَى الْبَقَاءِ ، بَعْدَ أَنْ كِدْتُ
أَذْفَنُ فِيهِ حَيًّا . وَقُلْتُ لِنَفْسِي : « مَا دَامَتِ الْجَزِيرَةُ عُرْضَةً لِأَخْطَارِ
الزَّلْزَالِ ، فَلَيْسَ مِنَ الْحَزْمِ ^(١) أَنْ أَتَّخِذَ هَذِهِ الْمَغَارَةَ مَسْكَنًا لِي ،
وَمَا أَجْدُرَنِي أَنْ أَتَخَيَّرَ مَكَانًا صَالِحًا فِي الْعَرَاءِ ^(٢) ، لِأَبْنِي فِيهِ مَسْكَنِي ،
بَعْدَ أَنْ أُسَوِّرَهُ بِسِيَاحِ أَمِينٍ ^(٣) . »

وَقَدْ تَأَلَّمْتُ لِمُعَادَرَةِ هَذَا الْكَهْفِ الَّذِي لَمْ آلُ جُهْدًا ^(٤) فِي حَفْرِهِ
وِلِإِصْلَاحِهِ وَتَنْظِيمِ أُمْتِمَتِي فِيهِ ، حَتَّى أَصْبَحَ يَتَنَا وَحِصْنًا مَنِيعًا ^(٥) يَقِينِي
غَارَاتِ الْأَعْدَاءِ .

(١) الْحِكْمَةُ . (٢) الْفُضَاءُ . (٣) سَوْرَ مَعِينٍ . (٤) لَا أَبْنِي قُوَّةَ إِلَّا بِدَلِيلِهَا
(٥) قُوَّةً .

٩ - أثرُ الزلزالِ

وَفِي صَبَاحِ أَوَّلِ « مَائُو » وَقَفْتُ أَتَأَمَّلُ الْبَحْرَ ، وَأَجِيلُ لِحَاطِي فِي أَرْجَائِهِ ^(١) . فَرَأَيْتُ بَقَايَا مُتَنَائِرَةً مِنْ حُطَامِ السَّفِينَةِ وَمِنْ أَلْوَاحِهَا ، قَذَفَهَا أَلَمَدُ إِلَى الشَّاطِئِ . فَصَبَرْتُ عَلَيْهَا حَتَّى يَنْحَسِرَ ^(٢) عَنْهَا أَلَمَاءُ ، وَقَتَ الْجَزْرِ ^(٣) . وَقَدْ دَهَشْتُ أَوَّلَ الْأَمْرِ مِمَّا رَأَيْتُ . وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا مِنْ أَثَرِ الزَّلْزَالِ الَّذِي حَطَّمَ السَّفِينَةَ تَحْطِيمًا ، ثُمَّ قَذَفَتْ الْأَمْوَاجُ بِالْوَاكِحِ إِلَى الشَّاطِئِ . وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا بِانْتِهَازِ هَذِهِ الْفُرْصَةِ قَبْلَ أَنْ أَشْغَلَ نَفْسِي بِنَاءِ الْمَسْكَنِ الْجَدِيدِ . وَعَمِلْتُ عَلَى تَجْزِئَةِ مَا بَقِيَ مِنَ السَّفِينَةِ إِلَى قِطْعٍ ، وَأَنَا عَلَى ثِقَةٍ مِنْ حَاجَتِي إِلَى هَذِهِ الْبَقَايَا الْمُحْطَمَةِ . وَقَدْ وَاصَلْتُ أَلْعَمَلَ فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْعَزْمِ حَتَّى مُتْتَصِفٍ شَهْرٍ « يُنِيَّة » ، وَظَفِرْتُ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأَلْوَاكِحِ ، كَمَا ظَفِرْتُ بِأَكْثَرِ مِنْ مِائَتَيْنِ رِبْطًا مِنَ الْحَدِيدِ . وَهَكَذَا أَصْبَحَ فِي مَقْدُورِي أَنْ أُبْنِيَ لِي زَوْرَقًا كَامِلًا أَلْمِصَّاتِ . وَصَنَعْتُ - بَعْدَ ذَلِكَ - شَبَكَةً أَصْطَادُ بِهَا السَّمَكَ . وَكُنْتُ أَجْفَفُ مَا يَزِيدُ عَلَى حَاجَتِي مِنْهُ فِي ضَوْءِ الشَّمْسِ وَحَرَارَتِهَا ، ثُمَّ آكُلُهُ فِي أَوْقَاتٍ أُخْرَى .

(١) ارتداد الماء .

(٢) يَرْتَدُّ .

(٣) أَدِيرُ بِصَرِي فِي أَنْحَاةِهِ .

١٠ - يَنَ بَرَانِ الْحُمَى

وَفِي الْيَوْمِ السَّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » رَأَيْتُ سُلْحَفَةً
كَبِيرَةً تَدِبُ عَلَى الْأَرْضِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ أَوَّلَ سُلْحَفَاتِ أَرَاهَا فِي الْجَزِيرَةِ .
عَلَى أَنَّي رَأَيْتُ - فِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ - أُسْرَابًا^(١) كَثِيرَةً مِنْ
السَّلَاحِفِ فِي النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى مِنْهَا .

وَذَبَحْتُ تِلْكَ السَّلْحَفَةَ ؛ فَرَأَيْتُ فِيهَا سَتَيْنَ بَيْضَةٍ . وَكَانَ لَحْمُهَا
- حِينَئِذٍ - شَهِيًّا لَذِيذًا ؛ حَتَّى حُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ أَشْهَى طَعَامٍ تَذَوَّقْتُهُ
فِي حَيَاتِي .

وَفِي الْيَوْمِ الثَّامِنِ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَةَ » هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ
غَزِيرَةً ، وَبَرَدَ الْجَوُّ فَجَاءَ ، فَأَصَابَتْنِي الْحُمَى عَشْرَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ . وَكَانَتْ
حَرَارَتِي تَخْتَلِفُ بَيْنَ ارْتِفَاعٍ وَأَنْخِفَاضٍ ، وَقَدْ أَشْتَدَّ بِي الظَّمَا ،
وَأَعْجَزَنِي الضَّعْفُ عَنِ السَّيْرِ إِلَى مَكَانِ الْمَاءِ لِأُرْوِيَ ظَمَنِي .

وَمَا تَمَائَلْتُ^(٢) ، حَتَّى أُنْصَرَفَ هَمِّي إِلَى مَلَأِ زُجَاجَةٍ كَبِيرَةٍ مَاءً ،
وَوَضَعْتُهَا عَلَى الْمَائِدَةِ الْقَرِيبَةِ مِنْ سِرِّي .

(١) جماعات . (٢) دبت من الشفاء .

ولَقَدْ نَهَكْتَ الْحُمَى قُوَايَ^(١) ؛ فَبَقِيتُ عَشْرَةَ أَيَّامٍ أُخْرَى وَأَنَا
 حَاجِزٌ عَنْ أَدَاءِ أَىِّ عَمَلٍ . فَقَضَيْتُ دَوْرَ النَّفَقِ^(٢) فِي رَاحَةٍ تَامَّةٍ ،
 تَتَخَلَّلُهَا نَزْهَاتٌ قَصِيرَةٌ ، حَتَّى اسْتَرَدَدْتُ صِحَّتِي كَامِلَةً فِي الْيَوْمِ
 الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ « مُبْلِيَّة » .

١١ - إِرْتِيَادُ الْجَزِيرَةِ

وَرَأَيْتُنِي جَدِيرًا أَنْ أُرْتَادَ الْجَزِيرَةَ ، وَأَتَعَرَّفَ كُلَّ مَا فِيهَا .
 فَذَهَبْتُ إِلَى الْخَلِيجِ الصَّغِيرِ - وَهُوَ أَوَّلُ مَكَانٍ حَلَّتُهُ فِي هَذِهِ
 الْجَزِيرَةِ - وَسِرْتُ عَلَى شَاطِئِ الْغَدِيرِ الَّذِي يَصُبُّ فِيهِ ، وَقَطَعْتُ
 نَحْوَ مِيلَيْنِ فِي أَرْضٍ مُرْتَفَعَةٍ . وَقَدْ أُعْجِبْتُ بِالْمُرُوجِ الْخَضِرِ الْجَوِيلَةِ
 الْمُنْبَسِطَةِ الَّتِي يَخْتَرِقُهَا الْغَدِيرُ . وَرَأَيْتُ فِي الْمُرُوجِ الْمُرْتَفَعَةِ كَثِيرًا
 مِنَ التَّبَعِجِ الْأَخْضَرِ نَائِمًا عَلَى سُوقِ مُرْتَفَعَةٍ ، كَمَا رَأَيْتُ عِيدَانِ قَصَبِ
 الشُّكْرِ عَلَى غَيْرِ مَا يُرَامُ ، فَقَدْ أَهْمِلْتُ وَلَمْ يَتَعَمَّدْهَا أَحَدٌ بِعِنَايَتِهِ .
 وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِي - أَيْ فِي السَّادِسِ عَشَرَ مِنْ ذَلِكَ الشَّهْرِ -

(١) أضعفتها . (٢) مدة استكمال الصحة .

سِرْتُ فِي الطَّرِيقِ الَّتِي قَطَعْتُهَا بِالْأَمْسِ ، وَتَوَغَّلْتُ^(١) فِي الْمَرْوَجِ . فَرَأَيْتُ
وَرَاءَهَا كَثِيرًا مِنْ أَشْجَارِ الْفَاكِهَةِ وَغَيْرِهَا ، وَرَأَيْتُ — مِنْ السَّمَاءِ
وَالْعِنَبِ النَّاصِجَ الشَّيْءَ — مَا أَذْهَشَنِي وَأَفْهَمَ قَلْبِي سُرُورًا . فَأَكَلْتُ
مِنْ الْفَاكِهَةِ فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ حَتَّى لَا تُسَلِمَنِي الثُّخْمَةُ إِلَى الْمَرَضِ .
ثُمَّ عَنَّ لِي أَنْ أَجْفَفَ الْعِنَبَ حَتَّى يُصْبِحَ زَيْبًا . وَمَضَى النَّهَارُ كُلُّهُ
وَأَنَا جَادٌّ فِي هَذَا الْعَمَلِ . وَلَمْ أَشَأْ أَنْ أَعُودَ إِلَى مَسْكَنِي قَبْلَ أَنْ
يُقْبَلَ اللَّيْلُ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ^(٢) فَتَخَيَّرْتُ لِنَوْمِي شَجَرَةً كَثِيفَةً الْأَغْصَانِ ،
وَنِمْتُ بَيْنَ أَغْصَانِهَا ، كَمَا نِمْتُ أَوَّلَ لَيْلَةٍ حَلَلْتُ فِيهَا هَذِهِ الْجَزِيرَةَ .
وَمَا زِلْتُ نَائِمًا قَرِيرَ الْمَنِيِّ^(٣) هَادِيَّ الْبَالِ حَتَّى أَقْبَلَ الصُّبْحُ . فَاسْتَيْقَظْتُ ،
ثُمَّ وَاصَلْتُ السَّيْرَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ أَمْيَالٍ ، حَتَّى بَلَغْتُ غَابَةَ زُرْهَرَةٍ ،
تُلَوِّحُ لِعَيْنٍ مَنْ يَرَاهَا مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهَا حَدِيقَةٌ .

وَقَدْ اسْتَرْعَى بَصَرِي مَا رَأَيْتُهُ مِنْ شَجَرِ الْبُرْتُقَالِ وَاللَّيْمُونِ وَمَا إِلَى
ذَلِكَ مِنَ الْفَاكِهَةِ النَّاصِجَةِ الشَّيْءِ .

وَرَأَيْتُ مِنْ أَصَالَةِ الرَّأْيِ^(٤) أَنْ أُعِدَّ مِنْ هَذِهِ الْخَيْرَاتِ الْعَمِيَّةِ

(١) قَطَعْتُ مَسَافَةً بَعِيدَةً . (٢) بَعْدَ الْمَسَافَةِ . (٣) سُرُورًا . (٤) جِدَدُهُ

زَادَا اخْتَزَنَهُ لِفَصْلِ الشَّتَاءِ الْقَرِيبِ . فَجَنَّتْ كَثِيرًا مِنَ الْعِنَبِ ،
وَعَلَّقَتْهُ عَلَى غُصُونِ الشَّجَرِ ، لِيَجِفَّ فِي الشَّمْسِ . وَأَخَذْتُ مِنَ الْبُرْتَقَالِ
بِمِقْدَارِ مَا أَسْتَطِيعُ حَمْلَهُ . وَسِرْتُ فِي طَرِيقِي عَائِدًا إِلَى مَسْكَنِي ،
وَأَنَا شَدِيدُ الْإِعْجَابِ بِجَمَالِ هَذَا الْوَادِي الْخَصِيبِ ، وَأَعْتَدَالِ جَوْوِهِ ،
وَحُسْنِ مَوْقِعِهِ الْأَمِينِ . وَعَرَفْتُ أَنَّ الْمَكَانَ - الَّذِي تَخَيَّرْتُهُ
لِسُكْنَايَ - هُوَ أَرْدَأُ بُقْعَةٍ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ
أَبْرَحَ الْمَكَانَ ، لِقُرْبِهِ مِنَ الْبَحْرِ . وَقَدْ كُنْتُ أَتَوَقَّعُ أَنْ تَمُرَّ بِي
سَفِينَةٌ ، أَوْ يَهْدَى عَلَيَّ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ فَيُنْقِذَنِي مِنْ تِلْكَ الْمُرَلَّةِ .

عَلَى أَنِّي - لِشِدَّةِ إِعْجَابِي بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ الْحَبِيلَةِ - لَمْ أَشَأْ أَنْ
أَبْتَعِدَ عَنْهَا . فَأَنْشَأْتُ فِيهَا عُمًا آوَى إِلَيْهِ وَسَطَ فَنَاءٍ^(١) مُحَاطٍ بِسِيَاجٍ^(٢)
طَبِيعِي مُزْدَوِجٍ مِنَ الْأَشْجَارِ . وَكُنْتُ أَمْضِي فِي هَذَا الْحِصْنِ لَيْلَتَيْنِ
أَوْ ثَلَاثًا مُتَوَالِيَةً . وَقَدْ صَنَعْتُ سُلَّمًا شَبِيهَا بِالسُّلَّمِ الَّذِي صَنَعْتُهُ فِي
الْمَنْزِلِ الْأَوَّلِ . وَهَكَذَا أَصْبَحَ لِي مَنَزَلَانِ مُتَبَاعِدَانِ ، آوَى إِلَيْهِمَا فِي
أَيِّ وَقْتٍ أَشَاءُ . وَظَلَمْتُ كَذَلِكَ إِلَى أَوَّلِ شَهْرِ « أَغُسْطُسَ » .

(١) مكان فضاء واسع . (٢) سور ٧٠ .



١٢ - فَصْلُ الْأَمْطَارِ

وَفِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ «أَغُسْطُسَ» بَدَأَ الْمَطَرُ يَنْهَمِرُ
بَشِدَّةٍ إِلَى أَنْ حَلَّ مُتْتَصِفٌ «أَكْثُوبَر»، فَبَدَأَتْ تَخِفُ وَطَاءَةُ الْمَطَرِ .

وَكُنْتُ - لِحُسْنِ حَظِّي - قَدْ تَقَلْتُ إِلَى مَسْكَنِي الْأَوَّلِ كُلَّ
 مَا جَفَّفْتُهُ مِنَ الْعِنَبِ قُبَيْلَ حُلُولِ فَصْلِ الْأَمْطَارِ . فَلَمَّا اشْتَدَّ انْهِمَارُ
 الْمَطَرِ وَتَمَدَّرَ عَلَى الْخُرُوجِ ، وَجَدْتُ مَا يَكْفِينِي مِنَ الزَّادِ . وَكَانَ
 الْمَطَرُ يَضْطَرُّنِي فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، إِلَى الْإِنْزِوَاءِ فِي مَفَارِقِي عِدَّةِ أَيَّامٍ .
 وَبَعْدَ قَلِيلٍ شَعَرْتُ أَنَّ زَادِي يُوشِكُ أَنْ يَنْتَهِيَ ؛ فَاضْطَرَرْتُ إِلَى
 الْخُرُوجِ مِنْ بَيْتِي مَرَّتَيْنِ . وَقَدْ اضْطَدْتُ جَدِيًا وَسَلْخَفَةً كَبِيرَةً ،
 وَكَانَ لِحَمَّهِمَا شَهِيًّا .

وَكَانَ فَطَوْرِي عُثْقُودًا مِنَ الْعِنَبِ ، وَغَدَائِي شِوَاءَةً مِنْ جَدْيٍ أَوْ
 سُلْخَفَةٍ ، وَعَشَائِي يَبْضَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا
 وَلَمَّا جَاءَ الْيَوْمُ الْمُتِمُّ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبَر » ، اثْنَا بَنِي ذِكْرِيَاتٍ
 مُؤَلِّمَةٌ . وَقَدْ سَاوَرَتْنِي ^(١) حِينَ مَرَّ بِخَاطِرِي أَنَّي حَلَلْتُ هَدِيَّةَ
 الْجَزِيرَةِ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ مِنَ الْعَامِ الْمَاضِي ، وَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ عَامٌ
 بِأَكْمَلِهِ فِي هَذَا الْمَنَى . وَلَقَدْ كُنْتُ شَدِيدَ الْيَقَظَةِ فِي مُرَاقَبَةِ الْفُصُولِ
 وَحُسْبَانِ أَيَّامِ السَّنَةِ ؛ حَتَّى لَا أَفْجَأًا بِالْأَمْطَارِ . وَقَدْ أَكْسَبَتْنِي الْمِرَانَةُ
 خِبْرَةً نَادِرَةً بِالزَّرَاعَةِ ، وَنَجَّحَتْ أَعْمَالِي نَجَاحًا بَاهِرًا .

(١) خطرت لي .

١٣ - البَيْغَاءُ وَالْجَدَى

وَكُنْتُ دَائِبًا عَلَى الْعَمَلِ فِي كُلِّ يَوْمٍ . وَلَمْ أَقْصُرْ فِي تَوْفِيرِ الزَّادِ^(١)
عِنْدِي قَبْلَ حُلُولِ الْأَمْطَارِ ؛ حَتَّى لَا يُزْعِجَنِي نَقْصُ الزَّادِ إِذَا حَبَسَنِي
الْمَطَرُ عَنِ الْخُرُوجِ مِنَ الْبَيْتِ .

وَرَأَيْتُنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى سِلَالٍ أَضْعُ فِيهَا أَلْفَاكِمَةً وَالطَّعَامَ . وَقَدْ
وُقِّفْتُ إِلَى صُنْعِهَا بَعْدَ عَنَاءٍ طَوِيلٍ . وَكُنْتُ أَكْثَرُ مِنَ التَّجَوُّلِ فِي
تِلْكَ الْجَزِيرَةِ . وَقَدْ أَسْتَرْعَى بَصَرِي - ذَاتَ يَوْمٍ - أَرْضٌ فَسِيحَةٌ ،
وَكَانَ الْيَوْمُ صَحْوًا . وَقَدْ رَأَيْتُهَا مَرَّةً ، تَمْتَدُّ مِنَ الْغَرْبِ إِلَى الْجَنُوبِ
الْغَرْبِيِّ . وَهِيَ تَبْعُدُ عَنْ جَزِيرَتِي نَحْوَ خَمْسَةِ عَشَرَ مِيلًا ، وَلَمْ أَكُنْ
أَعْرِفُ شَيْئًا عَنْهَا . وَقَدْ هَدَانِي التَّفَكِيرُ الطَّوِيلُ إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ
الْبَعِيدَةَ تَمْتَدُّ إِلَى بِلَادِ الْبَرَزِيلِ . وَشَهِدْتُ - فِي أَثْنَاءِ تَجَوُّلِي فِي تِلْكَ
السُّهُولِ الْخَضِرِ الْمَزْدَهَرَةِ الْجَمِيلَةِ ، ذَاتِ الْأَشْجَارِ الْبَاسِقَةِ^(٢)
الْكثِيفَةِ^(٣) - جَمْعَةً مِنَ الْبَيْغَاوَاتِ .

وَقَدْ وُقِّفْتُ إِلَى اقْتِنَاصِ بَيْغَاءٍ صَغِيرَةٍ ، ضَرَبْتُهَا بِمَصَايَ ، ثُمَّ

(١) حِمْلُهُ . (٢) الْمَرْفَعَةُ . (٣) الْغُلِيظَةُ .

أَذْفَأْتُهَا بَيْنَ ثِيَابِي، حَتَّى عَادَتْ إِلَى صَوَابِهَا. وَعُدْتُ بِهَا إِلَى مَسْكَنِي،
فَرَأَيْتُ كُلِّي قَدْ أَصْطَادَ جَذِيًا صَغِيرًا؛ فَاسْرَعْتُ لِإِتْقَازِ الْجَذِي مِنَ
بَيْنِ مَخَالِبِهِ.

وَقَدْ عُنِيتُ بِتَرْيِيقَةِ اللَّبْنَاءِ
وَالْجَذِي وَتَأْنِيسِهِمَا^(١). فَرَبَطْتُ
الْجَذِيَّ إِلَى وَتْدٍ، وَصَنَعْتُ لِلْبْنَاءِ
قَفَصًا. وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْهِمَا زَمَنٌ
قَلِيلٌ، حَتَّى أُنْسَا بِي وَأُرْتَاحَا
إِلَى صُحْبَتِي. وَكَانَ الْجَذِيُّ
يَتَّبَعُنِي حَيْثُمَا سِرْتُ، وَلَا يَكَادُ
يُطِيقُ فِرَاقِي.



وَهَكَذَا سَعِدْتُ - فِي
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ النَّائِيَةِ - بِصُحْبَةِ هَذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ الْجَدِيدَيْنِ، كَمَا سَعِدْتُ
بِصُحْبَةِ كُلِّي وَقَطَّعِي مِنْ قَبْلُ.

(١) جعلتهما كأنسانين ولا يهربان مني .

زمن العزلة

١ - أعداء الزراعة

حَلَّ الْيَوْمُ الْمُتَمِّمُ لِلثَّلَاثِينَ مِنْ « سِبْتَمْبَر » ، وَهُوَ الذُّكْرَى الثَّانِيَّةُ لِلْيَوْمِ الْمَشْنُومِ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ هَذِهِ الْجَزِيرَةُ الْمُوحِشَةُ النَّائِيَّةُ ، حَيْثُ كُتِبَ عَلَى أَنْ أَتْرَكَ الْعَالَمَ وَأُسْتَسْلِمَ لِلْعُزْلَةِ . عَلَى أَنَّي وَجَدْتُ فِي الْعَمَلِ رَاحَةً عَظِيمَةً ، وَظَفِرْتُ - بِجِدِّي وَدُعْوِي وَمُثَابَرَتِي ^(١) - بِنَتَائِجٍ بَاهِرَةٍ . فَجَنَيْتُ فِي آخِرِ الْخَرِيفِ مَخْصُولًا وَافِرًا مِنَ الْجُبُوبِ . وَلَكِنْ فَرَحِي بِهِ لَمْ يَدُمَ طَوِيلًا ؛ فَقَدْ نَعَّصَهُ عَلَى عَبَثِ الْجِدَاءِ بِهِ . وَكُنْتُ أَرَى بَعْضَ حَيَوَانِ الْجَزِيرَةِ - وَهُوَ أَشْبَهُ شَيْءٍ بِالْأَرْزَبِ الْجَبَلِيِّ يَمِيشُ بِزَرْعِي فَسَادًا . وَقَدْ أَسْتَمَرَّ ^(٢) الْقَمَحَ - وَهُوَ عَلَى سُوقِهِ - وَأَغْرَتَهُ لَذَّتُهُ بِإِفْسَادِ مَا زَرَعْتُهُ مِنْهُ . فَلَمْ أَرَ بُدًّا مِنْ تَسْوِيرِ الْحَقْلِ بِسِيَّاحٍ مِنْ

(١) صبري ومواظبتي . (٢) استطاب .

الْأَغْشَابِ الْمُتَرَفِّعَةِ . وَقَدْ جَهَدَنِي ذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَسَابِعَ . وَلَمْ آلُ
 جُهْدًا فِي مُطَارَدَةِ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ الْخَيْثَةِ نَهَارًا ، فَإِذَا جَاءَ اللَّيْلُ رَبَطْتُ
 الْكَلْبَ إِلَى حَبْلِ طَوِيلٍ مُثَبَّتٍ فِي بَابِ الْحَقْلِ ، فَلَا يَفْتَأُ يَنْبَحُ طُولَ
 اللَّيْلِ حَتَّى يُزْعِجَهَا ؛ فَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ هَجَرَتِ الْبُقْعَةَ الَّتِي كُنْتُ فِيهَا ،
 وَلَمْ تَعُدْ تَدْنُو مِنْهَا بَعْدَ ذَلِكَ . وَاسْتَرَحْتُ مِنْ عَيْثِ هَذِهِ الْأَعْدَاءِ ^(١) ،
 حَتَّى حَانَ وَقْتُ الْحَصَادِ . فَظَهَرَ لِي أَعْدَاءُ جُدُدٍ ؛ إِذْ أَقْبَلَتِ الطُّيُورُ عَلَى
 سَنَابِلِ الشَّعِيرِ تَلْتَهُمُهَا ، وَأَسْتَمَرَّتْ هَذَا الطَّعَامَ الشَّهِيَّ . عَلَى أَنَّي لَمْ
 أَيْتَسْ مِنْ النَّجَاحِ فِي مُطَارَدَتِهَا ، فَظَلِلْتُ أُخْرُسُ حَقْلِي لَيْلَ نَهَارٍ ،
 وَأَصْطَادُ يَبْنُدُ قِيَّتِي كُلَّ طَائِرٍ يَدْنُو مِنْ حَقْلِي ؛ حَتَّى ذُعِرَتِ الطُّيُورُ
 وَتَمَلَّكَهَا الرُّعْبُ ، فَهَجَرَتِ الْحَقْلَ وَمَا يَكْتَنِفُهُ ^(٢) ، وَلَمْ تَجْرُؤْ عَلَى الدُّنُوِّ
 مِنْ هَذِهِ الْبُقْعَةِ . وَهَكَذَا تَمَّ لِيَ الظَّفَرُ ، وَأَزْتَاخَ بَالِي ، وَنَضِجَ الزَّرْعُ
 فِي الْأَيَّامِ الْأَخِيرَةِ مِنْ « دَيْسَمْبَرِ »

٢ - أدوات الزّارع

وَقَدْ أَشْتَدَّتْ خَيْرَتِي وَأَزْتَبَاكِي حِينَ هَمَمْتُ بِجَنِّي هَذَا الْمَحْصُولِ

(١) ما فعلته من الأذية . (٢) ما يحيط به .

وَلَيْسَ عِنْدِي مِنَ الْأَدَوَاتِ مَا يُسَاعِدُنِي عَلَى ذَلِكَ . وَعَنْ لِي أَنْ أَصْنَعَ
مِنْجَلًا ، وَهُوَ آلَةٌ مِنَ الْحَدِيدِ مُنْحَنِيَّةٌ يُقَطَّعُ بِهَا الزَّرْعُ .

فَصَنَعْتُهُ مِنْ سَيْفٍ وَغُصْنِ شَجَرَةٍ . وَقَطَعْتُ السَّنَابِلَ ، ثُمَّ فَرَكَتُهَا
بِيَدَيَّ ، وَعَزَمْتُ عَلَى بَذَرِهَا جَيِّمًا فِي الْمَوَسِمِ الْقَابِلِ . وَهَذَا تَمَثَّلَ لِي
مِقْدَارُ مَا يُعَانِيهِ الْإِنْسَانُ

إِذَا حَاوَلَ — بِفُرْدِهِ —

أَنْ يَظْفَرَ بِرَغِيفٍ وَاحِدٍ

مِنَ الْخُبْزِ ؛ فَقَدْ كُنْتُ

فِي حَاجَةٍ إِلَى مِخْرَاطٍ

وَقَاسٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ

أَدَوَاتِ الزَّرَاعَةِ . فَإِذَا تَمَّ

الْحَصَادُ أَشَدَّتْ حَاجَتِي

إِلَى طَاحُونَةٍ وَمُنْحَلٍ وَفُرْنٍ

وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الْمِلْحِ وَغَيْرِهِ . وَلَكِنَّ الْجِدَّ وَالْمُثَابَرَةَ كَفِيلَانِ بِالتَّغْلِبِ

عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ . وَقَدْ تَمَّ لِي كُلُّ مَا أَرَدْتُ بِفَضْلِ الْمَرِيَمَةِ عَلَى الْعَمَلِ ،



لِأَنِّي كُنْتُ لَا أَضِيعُ وَقْتِي عَبَثًا . فَإِذَا هَطَلَتِ الْأَمْطَارُ لَرِمْتُ يَتْنِي ،
وَأَقْبَلْتُ عَلَى يَبْنَاءِي أَعْلَمُهَا النُّطْقَ ، حَتَّى وَصَلْتُ إِلَى نَتَائِجِ بَاهِرَةٍ .

٣ - صِنَاعَةُ الْفَخَّارِ

وَلَمَّا كَانَتْ الْحَاجَةُ تَفْتَقُ الْحِيلَةَ ^(١) ، اضْطَرَرْتُ إِلَى مُرَاوَلَةِ صِنَاعَةِ
الْفَخَّارِ ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِهَا عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . وَقَدْ نَجَحْتُ فِي ذَلِكَ - بَعْدَ
مِرَانَةٍ طَوِيلَةٍ ، وَتَجَارِبَ كَثِيرَةٍ - فَصَنَعْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجِرَارِ ^(٢)
وَالْأَوَانِي وَالْقِصَاصِ ^(٣) وَالْمِصْحَافِ ^(٤) . وَمَا زِلْتُ أُرْتَقِي فِي هَذِهِ الصَّنَاعَةِ
حَتَّى بَلَغْتُ حَدًّا بَجْدِيرًا بِالتَّهْنِئَةِ .

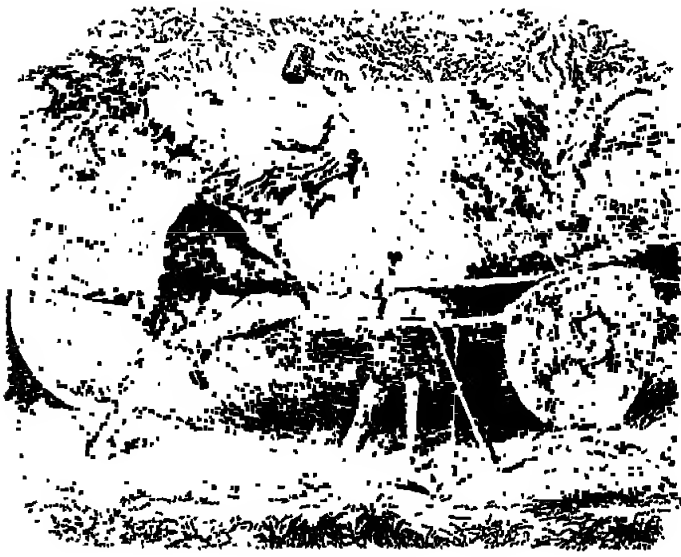
٤ - الرُّورْقُ الْكَبِيرُ

عَلَى أَنْ هَذِهِ الْأَعْمَالُ الْكَثِيرَةُ الْمُرْهِقَةُ لَمْ تُنْسِنِي رَغْبَتِي الشَّدِيدَةَ
فِي ارْتِيَادِ الْأَرْضِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا - مِنْ قَبْلُ - تُجَاهَ الْجَزِيرَةِ .
فَقَدْ كُنْتُ أَمْلُ أَنْ أَجِدَ فِيهَا وَسِيلَةً لِلْعَوْدَةِ إِلَى « لَنْدَن » .

(١) الصَّوْرَةُ نَمَتْ عَلَى ابْتِكَارِ الْحِيلَةِ (٢) مَعَ جِرَّة (٣) مَعَ نَقْصَةٍ

(٤) جَمْعُ صَفْحَةٍ . وَهِيَ الطَّبَقُ .

وَذَكَرْتُ زَوْرَقَ السَّفِينَةِ الَّتِي انْقَلَبَ بِرِفاقي ، فرَأَيْتُهُ لَا يَزَالُ
 كَمَا هُوَ عَلَى مَقَرَّبَةٍ مِنَ الشَّاطِئِ مَقْلُوبًا ، وَقَدْ غَاصَ جُزْءٌ مِنْهُ فِي رِمَالِ
 الشَّاطِئِ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ أَرْفَعَهُ مِنْ مَكَانِهِ ، فَذَهَبَتْ كُلُّ جُهودِي عَبَثًا .
 فَأَقْبَلْتُ عَلَى



جُذُوعِ الْأَشْجَارِ ،
 وَبَدَلْتُ كُلَّ مَا فِي
 وَسْعِي زَمَنًا طَوِيلًا ،
 حَتَّى صَنَعْتُ زَوْرَقًا
 كَبِيرًا يَسَعُ سِتَّةَ
 وَعِشْرِينَ رَاكِبًا .

وَلَكِنِّي عَجَزْتُ عَنْ نَقْلِهِ إِلَى الْبَحْرِ ، وَأَعْيَنِي الْحَيْلُ فِي ذَلِكَ ،
 وَاسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ أُزْخِرَ حَتَّى عَنْ مَكَانِهِ ، كَمَا اسْتَحَالَ عَلَيَّ أَنْ أُزْخِرَ
 زَوْرَقَ السَّفِينَةِ مِنْ قَبْلُ .

٥ - الزورق الجديد

وانقضى العام الرابع، فانتظمت أموري واستقامت. وقد صنعتُ
— فيما صنعتُ — قلنسوة^(١) كبيرة من فراء الجداء التي تصيدتها،



كما صنعتُ منها جلبابِي وسِرْوَالي
وبعض الثياب، لتقيني غائلة
البرد في الشتاء. وصنعتُ مظلة
لتقيني غائلة الحر في الصيف
— فقد كانت الجزيرة واقعة
بالقرب من خط الاستواء،
وكان قِيْظُهَا^(٢) لذلك لا يُحْتَمَلُ—
فسهلتُ على السير نهارًا من
غير عناء، وآمنتني من المطر

والشمس. وكان شغلي الشاغل أن أصنع زورقًا أصغر من الزورق
الذي صنعتُه. ولم ينتهِ العام الخامس حتى أتممت صنعه. ونجحتُ

(٢) حرها

(١) عطا، رأس

فِي ذَلِكَ نَجَاحًا بَاهِرًا . فَجَعَلْتُ لَهُ شِرَاعًا ، وَثَبَّتُ فِيهِ مِظْلَةً كَبِيرَةً .
وَعَقَدْتُ الْعَزْمَ عَلَى الطَّوْفِ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ لِاتِّعَرَفَ مَدَى هَذِهِ
الْمَمْلَكَةِ الَّتِي كَتَبَ عَلَى الْقَدَرِ أَنْ أَكُونَ مَلِيكَهَا ، أَوْ - عَلَى
الْأَصَحِّ - مَدَى هَذَا السَّجْنِ الَّذِي أَثَبْتُ عَلَى الْمَقَادِيرِ إِلَّا أَنْ أَكُونَ
حَلِيفَةً^(١) وَسَجِينَهُ .

وَهَكَذَا أَعَدَدْتُ الطَّعَامَ وَالْمَاءَ لِهَذِهِ الرِّحْلَةِ . وَلَمْ أَنْسَ سِلَاحِي
لِدَافِعٍ بِهِ عَنْ نَفْسِي إِذَا حَانَ وَقْتُ الْخَطَرِ . وَأَزْمَنْتُ^(٢) التَّجْوَالَ حَوْلَ
الْجَزِيرَةِ ، بَعْدَ تَرَدُّدٍ طَوِيلٍ .

٦ - الطَّوْفُ حَوْلَ الْجَزِيرَةِ

وَبَدَأْتُ هَذِهِ الرِّحْلَةَ فِي الْيَوْمِ السَّادِسِ مِنْ « نُوفَمْبَرٍ » ، بَعْدَ
أَنْ مَرَّ عَلَى سِتَّةِ أَغْوَامٍ فِي مَمْلَكَتِي ، أَوْ فِي سِجْنِي إِنْ تَوَخَّيْتُ^(٣)
الْصُّدْقَ فِي التَّنْمِيرِ ! وَكَانَتْ هَذِهِ السَّيَاحَةُ أَطْوَلَ مِمَّا قَدَّرْتُ .

وَقَدْ تَعَرَّضْتُ - فِي أَثْنَاءِ هَذِهِ الرِّحْلَةِ - لِكَثِيرٍ مِنَ الْأَخْطَارِ ،
وَلَكِنْ تَوَفَّقَ اللَّهُ لِأَزْمِنِي ، حَتَّى عُدْتُ إِلَى يَتِيِّ الرِّيِّ - ذَاتَ
مَسَاءٍ - وَقَدْ جَهَدَنِي^(٤) التَّعَبُ ، فَاسْتَسَلَمْتُ لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .

(١) ملازمه . (٢) قررت . (٣) قصدت . (٤) أنصفتي .

٧ - مُفَاجَأَةُ الْبَيْتَاءِ

شَدَّ مَا تَمَلَّكَنِي الدَّهْشُ حِينَ طَرَقَ أُذُنِي صَوْتُ يُنَادِينِي بِاسْمِي ،
وَيَقُولُ فِي وُضُوحٍ وَجَلَاءٍ :

« رُوبِنْسَنُ ! إِيهِ يَارُوبِنْسَنُ ! هَا أَنْتَ ذَا يَا رُوبِنْسَنُ ! مِسْكِينُ أَنْتَ
يَا رُوبِنْسَنُ ! أَيْنَ أَنْتَ ؟ وَأَيْنَ
كُنْتَ ؟ وَكَيْفَ تَجِدُكَ يَا رُوبِنْسَنُ
كُرُوزُو ؟ »



وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّنِي حَالِمٌ ،
وَلَكِنَّ الصَّوْتَ عَادَ يَقُولُ :
« رُوبِنْسَنُ كُرُوزُو ! إِيهِ يَارُوبِنْسَنُ ! »
فَاسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي الْعَمِيقِ ،
وَقَدْ تَمَلَّكَنِي الدَّهْشَةُ وَالذُّعْرُ .
وَمَا تَبَيَّنْتُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ حَتَّى
عَاوَدَنِي الطُّمَأْنِينَةُ ، وَسَرَّيَ عَنْ نَفْسِي ^(١) ، إِذْ عَلِمْتُ أَنَّ بَنَانِي هِيَ

(١) دَهَبَ عَنْهَا الْفَزَحَ .

مصدّرُ هذا الصوتِ . فقد رأيتها قائمةً على السَّيَاحِ ، فَعَجِبْتُ مِنْ
 اهْتِدَائِهَا إِلَى هَذَا الْبَيْتِ ، وَقَدْ تَرَكْتُهَا فِي الْكَهْفِ . وَعَجِبْتُ مِنْ تَخْيِيرِهَا
 هَذَا الْمَكَانَ . وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللُّغْزِ . ثُمَّ نَادَيْتُهَا بِاسْمِهَا ، فَأَسْرَعَتْ
 إِلَيَّ ، وَوَقَفَتْ عَلَى إِبْهَامِي ، وَهِيَ تُكَرِّرُ سُؤَالَهَا مَسْرُورَةً مُبْتَهِجَةً بِلِقَائِي :
 « أَيْنَ كُنْتَ يَا رُوبِنْصَنْ كُرُوزُو ؟ أَيْنَ كُنْتَ يَا مِسْكِينُ ؟ »
 فَأَخَذْتُهَا مَعِيَ إِلَى الْكَهْفِ ، حَيْثُ عِشْتُ زُهَاءً عَامٍ^(١) فِي عُزْلَةٍ
 السَّجِينِ وَلَمْ يَكُنْ يُنْقَضُ^(٢) عَلَى صَفَائِي وَسَعَادَتِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ
 إِلَّا أَنَّهَا مُقْفَرَةٌ عَازِبَةٌ^(٣) لَيْسَ بِهَا أُنَيْسٌ .

٨ - صَيْدُ التَّمِيزِ

وَقَدْ أَتَقَنْتُ كَثِيرًا مِنَ الصَّنَاعَاتِ ، وَبَرَعْتُ فِيهَا بَرَاعَةً نَادِرَةً ،
 وَنَجَحْتُ فِي صِنَاعَةِ الْفَخَّارِ وَعَمَلِ السَّلَالِ . وَكُنْتُ أَصْطَادُ التَّمِيزِ
 وَالسَّلَاحِ كَمَا أَحْتَجُّ إِلَى ذَلِكَ . فَرَأَيْتُ الْبَارُودَ الَّذِي أَدْخَرْتُهُ عِنْدِي
 قَدْ نَقَصَ ، فَخَشِيتُ أَنْ يَنْفَدَ ، وَبِذَلِكَ أَعْجِزُ أَنْ أَصْطَادَ شَيْئًا مِنَ الْحَيَوَانِ .
 فَلَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَغْيِيرِ خُطَّتِي^(٤) هَذِهِ ، فَتَنَصَّبْتُ شَبَّاكًا لِأَصْطَادِ

(١) لعمري . (٢) يكثر . (٣) بعيدة . (٤) طريقتي .

مَعِيزًا عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ . وَلَمْ تَكُنْ شِبَاكِي صَالِحَةً لِصَيْدِهَا ، فَقَدْ أَفْلَتَتْ مِنْهَا الْمَعِيزُ الَّتِي وَقَعَتْ فِيهَا ، لِضَعْفِ حِبَالِهَا . فَلَجَأْتُ إِلَى طَرِيقَةٍ أُخْرَى .

وَذَلِكَ أَنِّي حَفَرْتُ حُفْرًا عَمِيقَةً فِي الْجِهَاتِ الَّتِي اعْتَادَتْ الْمِعْزَى أَنْ تَرْتَادَهَا^(١) ، وَغَطَّيْتُ تِلْكَ الْحُفْرَ بِشِبَاكِ مِنْ شَجَرِ الصَّبْصَافِ ، وَأَلْقَيْتُ عَلَيْهَا طَبَقَةً مِنَ التُّرَابِ ، وَغَرَسْتُ فِيهَا سَنَابِلَ مِنَ الرُّزِّ وَالشَّعِيرِ . وَقَدْ أَخَفَقْتُ^(٢) هَذِهِ الطَّرِيقَةَ — كَمَا أَخَفَقْتُ سَابِقَتَهَا مِنْ قَبْلُ — فَقَدْ كَانَتْ الْمَعِيزُ تَنْفِرُ مِنْهَا . ثُمَّ لَمْ تَلْبَثْ أَنْ خُدِعْتُ — بَعْدَ قَلِيلٍ — فَهَوَى فِي إِحْدَى الْحُفَرِ تِنْسٌ عَنِيدٌ ؛ فَلَمْ أَفْلِحْ فِي تَسْكِينِ ثَوْرَتِهِ وَهَيَاجِهِ ، فَاضْطَرَرْتُ إِلَى إِطْلَاقِهِ . وَلَوْ أَنَّنِي تَرَكْتُهُ فِي الْحُفْرَةِ أَيَّامًا حَتَّى يَدْوُخَهُ الْجُوعُ فَيَسْلَسَ^(٣) قِيَادَهُ ، لَمَّ لِي مَا أَرَدْتُ . وَلَكِنَّ هَذِهِ الْفِكْرَةَ لَمْ تَمُرَّ بِخَاطِرِي إِلَّا نَيْشًا^(٤) .

ثُمَّ وَقَعَ فِي حُفْرَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ مَاعِزَتَانِ صَغِيرَتَانِ وَجَدَيَّ صَغِيرٌ ، فَأَخَذْتُهَا جَمِيعًا إِلَى مَسْبَكِنِي . وَقَدْ أَبَتْ أَنْ تَأْكَلَ شَيْئًا ، ثُمَّ رَاضَهَا الْجُوعُ^(٥) ، وَأَضْطَرَّهَا إِلَى أَكْلِ مَا قَدَّمْتُ لَهَا مِنَ الْحُبُوبِ .

(١) . تَرَوَّجَ فِيهَا وَتَجَمَّعَ . (٢) . لَمْ تَنْجَحْ . (٣) . يَلِينُ . (٤) . بَعْدَ فَوَاتِ الْقُرْمَةِ . (٥) . دَلَّهَا .

وَبَدَّلْتُ جُهْدِي فِي تَهْيِئَةِ مَرْعَى خِصْبٍ ، وَسَوَّرْتُهُ بِسِيَاجٍ مَتِينٍ
 مِنَ الْأَعْشَابِ الْكَثِيفَةِ ، حَتَّى لَا تَجِدَ إِلَى الْفِرَارِ سَبِيلًا .
 وَظَلَلْتُ أَتَمَهَّدُهَا بِأَحْسَنِ الْأَوَانِ الطَّعَامِ الْحَبِيبِ إِلَى نَفْسِهَا مِنْ
 سَنَابِلِ الشَّعِيرِ وَحُبُوبِ الرُّزِّ حَتَّى أُنِسْتُ بِي . فَفَكَّكْتُ رِبَاطَهَا
 فَلَمْ تَهْرُبْ مِنِّي ، وَظَلَلْتُ تَتَّبِعُنِي أُنَى سِرَّتِي ، وَتَتَنَوَّعُ^(١) فَرِحَةً بِمَقْدَمِي
 كُلَّمَا رَأَتْنِي . وَبَعْدَ عَامٍ وَنِصْفِ عَامٍ أَصْبَحَ لَدَيَّ قَطِيعٌ^(٢) لَا يَقِلُّ
 عَنْ اثْنَيْ عَشَرَ جَذِيًّا وَعِزًّا . ثُمَّ تَضَاعَفَ الْمَدَدُ عَلَيَّ مَرَّةً الْآيَامَ ،
 وَأَصْبَحْتُ حَيَاتِي رَعْدًا^(٣) ، وَعَيْشَتِي وَادِعَةً نَاعِمَةً ؛ فَقَدْ كَانَتْ تُدِرُّ^(٤)
 مَقَادِيرَ وَافِرَةٍ مِنَ اللَّبَنِ . فَلَمْ أَضِغْ هَذِهِ الْفُرْصَةَ ، وَعَزَمْتُ عَلَى صُنْعِ
 الْجُبْنِ وَالزُّبْدِ مِنَ الْبَانِيَا ، وَلَمْ يَكُنْ لِي بِذَلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ .
 وَمَا زِلْتُ أُدَرِّبُ نَفْسِي عَلَى هَذَا الْعَمَلِ ، حَتَّى وَفَّقْتُ إِلَيْهِ ، وَنَجَحْتُ
 فِي تَحْقِيقِهِ أَكْبَرَ نَجَاحٍ .

٩ - رِفَاقُ « رُوبِنْسَن »

وَكَانَتْ مَائِدَتِي - فِي كُلِّ يَوْمٍ - حَافِلَةً^(٥) بِشَتَّى الْأَوَانِ

(١) تردد صوته . (٢) جمع . (٣) هائلة . (٤) تعطي . (٥) مملوءة

الغذاء . وقد نِعِمْتُ بِرِفاقِ الحُلَفاءِ : فالْبَيْفَاءِ تُنادِئُني^(١) وتُسَلِّني بِحَدِيثِهَا ، والْكَلْبُ يَجْلِسُ إلى يَمِينِي - عَلَى المائِدَةِ - وَيَجْلِسُ القِطَّانُ إلى يَسَارِي مُتَقَابِلِينَ . وقد عَلِمَ القَارِئُ - فِيما سَبَقَ - أَنَّني أَخْضَرْتُ مَعِي قِطَّينِ مِنَ السَّفِينَةِ ؛ فَلْيَعْلَمْ القَارِئُ الآنَ أَنَّهما ماتا مُنْذُ زَمَنٍ طَوِيلٍ ، بَعْدَ أَنْ نَسَلَا^(٢) كَثِيرًا مِنَ القِطَطِ ، وَلَمْ يُخْلِصْ لِي مِنْها غَيْرُ هَذَيْنِ القِطَّينِ . أمَّا إِخْوَتُهُما فَكَانَتْ شَرِيرَةً مَأكِرَةً ، تَسْرِقُ كُلَّ ما تَلْقَاهُ في طَرِيقِها مِنَ الطَّعامِ ؛ فَطَرَدْتُها مِنْ بَيْتِي شَرًّا طَرَدَةٍ ، بَعْدَ أَنْ نَكَّلتُ بِها^(٣) . فَهَرَبَتْ إلى الغَابَةِ ، وَلَمْ تَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى عَادَتْ إلى طَبْعِها الوَخْشِيِّ الشَّرِسِ

١٠ - زِيُّ « رُوبِنْسَن »

لَعَلَّ القَارِئَ قَدِ اشْتاقَ إلى تَعَرُّفِ الزَّيِّ^(٤) الَّذِي اخْتَرْتُهُ لِنَفْسِي كُلِّما أَرَدْتُ أَنْ أَجُولَ في مَمْلَكَتِي الصَّخِيرَةِ . فَلَأَمَثَلُ لَهُ ذَلِكَ الزَّيُّ العَجِيبُ :

(١) تبالسني . (٢) ولدا . (٣) آذيتها . (٤) اللبس .

كَانَتْ قَلَنْسُوتِي ^(١) مُرْتَفَعَةً ، وَقَدْ صَنَعْتُهَا مِنْ جِلْدِ عَظْرٍ .
وَكَانَتْ عَذَبْتُهَا ^(٢) مُدْلَاةً عَلَى قَفَايَ لِتَحْمِيَنِي مِنْ وَهْجِ الشَّمْسِ .

وَكَانَ سِرِّي إِلَى مَصْنُوعًا
مِنْ جِلْدِ تَيْسٍ هَرَمٍ ،
وَالشَّعْرُ يَتَدَلَّى مِنْهُ إِلَى
نِصْفِ سَاقِي .

وَكُنْتُ أَصْعُ فِي
حِزَابِي - وَهُوَ أَيْضًا
مِنْ جِلْدِ الْمَعِيزِ - مَنَشَارًا وَقَدُومًا ،
وَأَحْمِلُ عَلَى كَتِفِي بُنْدُوقَةً ، وَأَحْمِلُ
عَلَى ظَهْرِي سَلَّةً كَبِيرَةً ، فِيهَا
طَعَامِي وَشَرَابِي ، وَفِي يَدَيَّ مِظْلَتِي ،



لِتَقِيَنِي لَفْحَ الشَّمْسِ ^(٣) ، وَهُطُولَ الْأَمْطَارِ .

(٣) حرها

(١) غطاء رأسي . (٢) طرفها

الفصل السابع

جُمعة

١ - آثارُ أَقدامٍ



وفي ذاتِ يومٍ
رَأَيْتُ آثَارَ أَقدامٍ
واضِحَةً عَلَى الرَّمْلِ ؛
فَتَمَلَّكَنِي الدُّعْرُ ،
وَحَيَّلَ إِلَيَّ أَنَّ صَاعِقَةً
أَنْقَضَتْ عَلَى .

وَتَلَفَّتُ حَسُولِي
خَائِفًا ، وَأَرْهَفْتُ
أُذُنِي ^(١) فَلَمْ أَرِ إِنْسَانًا ،
وَلَمْ أَسْمَعْ صَوْتًا .
وَصَعِدْتُ إِلَى أَعْلَى

(١) أَسْمَعْتُ .

مَهْضِبَةٍ مُرْتَفِعَةٍ ، وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي كُلِّ مَكَانٍ ، فَلَمْ أَحِذْ شَيْئًا يَدُلُّ عَلَى
أَنْ فِي هَذَا الْمَكَانِ إِنْسِيًّا . وَقَدْ كَذْتُ أَظُنُّنِي وَاهِمًا^(١) فِيمَا رَأَيْتُ ،
وَلَكِنْ آتَاكَ الْقَدَمُ - وَهِيَ عَارِيَّةٌ - لَمْ تَدْبَعْ لِي مَجَالًا لِلشَّكِّ .
فَقَدْ رَأَيْتُ الْأَصَابِعَ وَالْعِقَبَ مُرْتَسِمَةً عَلَى الرَّمْلِ ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدِي
رَيْبٌ^(٢) فِي حَقِيقَةِ مَا رَأَيْتُ . فَأَسْرَعْتُ إِلَى كَهْفِي ، وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ
أَنْ جِئْتُهَا آجِبًا^(٣) يُطَارِدُنِي . وَبِتُّ لَيْلَةً نَائِغِيَّةً^(٤) ، وَلَمْ يَزِرِ النَّوْمُ جَفْنِي
حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ، مِنْ شِدَّةِ الْخَوْفِ .

وَلَزِمْتُ يَدَيَّ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ كَامِلَةٍ ، ثُمَّ اضْطَرَرْتُ الْجُوعُ إِلَى الْخُرُوجِ
إِلَى يَتِيِّ الْآخِرِ الَّذِي بَنَيْتُهُ بَيْنَ الْكُرُومِ^(٥) .

٢ - الْحَيْظَةُ

وَهَكَذَا تَمَلَّكَتْنِي النَّعْشَةُ وَالْحَيْرَةُ . فَقَدْ مَرَّ عَلَيَّ - فِي هَذِهِ
الْجَزِيرَةِ - خَمْسَةُ عَشَرَ عَامًا ، لَمْ أَشْهَدْ فِيهَا أَحَدًا ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
رُؤْيَايَ أَثَرِ الْقَدَمِ .

(١) متخيلاً . (٢) شك . (٣) كدراً .
(٤) ليلة طويلة حافلة بالهموم . (٥) أشجار العنب .

ثُمَّ قُلْتُ فِي نَفْسِي : « لَعَلَّ بَعْضَ سُكَّانِ تِلْكَ الْقَارَةِ الْمُجَاوِرَةِ
قَدْ وَفَدُوا عَلَى جَزِيرَتِي ؛ عَلَى أَنَّهُمْ سَيَتَرَكُونَهَا بَعْدَ أَنْ يَجِدُوهَا غَيْرَ
صَالِحَةٍ لِلْإِقَامَةِ . »

وَرَأَيْتُ أَنْ أَخْطَأَ لِلطَّوَارِي ، حَتَّى لَا يُفَاجِئَنِي الْأَعْدَاءُ ؛ فَزِدْتُ
فِي تَخْصِينِ مَغَارَتِي ، كَمَا حَصَّنْتُ يَتْنِي الْآخِرَ .
وَكُنْتُ لَا أَذْخُلُ الْبَيْتَ إِلَّا مُسْتَعِينًا بِسَلْمَيْنِ ،
فَإِذَا أَنْتَهَيْتُ مِنْ صُعُودِي الْأَوَّلِ رَفَعْتُ السَّلْمَ ،
ثُمَّ وَضَعْتُهُ فَوْقَ صَخْرَةٍ نَائِيَةٍ ^(١) لِأَصِلَ إِلَى حِصْنِي .
ثُمَّ رَفَعْتُ السَّلْمَ مَرَّةً أُخْرَى ، لِيُصْبِحَ مُسْتَحْيِلًا
عَلَى كَائِنٍ كَانَ أَنْ يَصْعَدَ إِلَيَّ .
وَلَمْ يَمْضِ عَلَيَّ عَامَانِ - بَعْدَ ذَلِكَ - حَتَّى
أَصْبَحْتُ عَلَى أَمِّ أَهْبَةٍ ^(٢) لِلنَّجَاةِ مِنْ كُلِّ خَطَرٍ .

٣ - آثَارُ الْفِيلَانِ

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ كُنْتُ أُرْتَادُ الْجَزِيرَةَ عَلَى عَادَتِي ،

(١) بَعِيدَةٌ . (٢) اسْتِعْدَادٌ .



وَأَتَرَفُ الْجِهَاتِ النَّائِيَةِ الَّتِي لَمْ تَطَأْهَا قَدَمَايَ مِنْ قَبْلُ . فَرَأَيْتُ مِنْ آثَارِ
الْمُتَوَحِّشِينَ مَا فَزَعَنِي ، وَمَلَأَ قَلْبِي رُغْبًا وَهَلَمًا . فَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّ هَؤُلَاءِ
الْمُتَوَحِّشِينَ الِهَمَجَ يَجِيئُونَ بِالْأَسْرَى — بَعْدَ أَنْ يَظْفَرُوا بِهِمْ فِي مَعَارِكِهِمْ ^(١) —
إِلَى الشَّاطِئِ الْجَنُوبِيِّ الْغَرْبِيِّ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، ثُمَّ يَشَوُّونَ لُحُومَهُمْ عَلَى
النَّارِ وَيَأْكُلُونَهَا . وَقَدْ رَأَيْتُ كَثِيرًا مِنَ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ ^(٢) مُبَعَثَةً فِي
تِلْكَ الْبُقْعَةِ ، عَلَى مَكَانٍ قَرِيبٍ مِنَ الرَّمَادِ الْكَثِيرِ الَّذِي خَلَقَتْهُ النَّارُ .

وَرَجَعْتُ إِلَى مَسْكَنِي مَهْمُومًا شَدِيدَ الْأَلَمِ مِمَّا رَأَيْتُ . وَتَبَيَّنَ لِي
— حِينَئِذٍ — أَنَّ آثَارَ تِلْكَ الْأَقْدَامِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي رَأَيْتُهَا مُنْذُ صَامِتٍ ،
لَمْ تَكُنْ إِلَّا آثَارَ أَقْدَامِ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ . فَاطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي قَلِيلًا ،
بَعْدَ أَنْ عَرَفْتُ هَذَا السِّرَّ الَّذِي لَمْ أَهْتَدِ إِلَى مَعْرِفَتِهِ مَدَى صَامِتٍ ،
وَكَانَ مَجْلَبَةً ^(٣) لِلْخَوْفِ وَالْفَزَعِ .

وَأَذْرَكْتُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ لَا يَبْحَثُونَ عَنْ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ ،
وَأَنَّهُمْ لَا يَجِيئُونَهَا إِلَّا لِيُثَقِّمُوا مَا دَبَّحَهُمْ ^(٤) فِيهَا ، كُلَّمَا ظَفَرُوا بِأَسْرَاهُمْ
فِي الْحُرُوبِ .

(١) حروبهم . (٢) الأعداء . (٣) سبباً . (٤) مجالس أكلهم .

وَلَقَدْ مَرَّ بِى ثَمَانِيَةَ عَشَرَ حَامًا ، لَمْ تَقَعْ عَيْنَاىَ - فى اثْنَانِهَا -
عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ . فَلَمَّا رَأَيْتُ مَا رَأَيْتُ ، اُعْتَصَمْتُ ^(١) بِالْحَذَرِ ، وَأَعْدَدْتُ
الْمُدَّةَ لِلطَّوَارِىْ ؛ حَتَّى لَا تُفَاجِئَنِى الْحَوَادِثُ عَلَى غِرَّةٍ ^(٢) .

٤ - مَادُبَةُ الْغِيلَانِ

وَفى شَهْرِ « دِيسَمْبَر » - وَكَانَ قَدْ مَرَّ عَلَى حِينْدِ ثَلَاثَةَ وَعِشْرُونَ
حَامًا فى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الثَّانِيَةِ - لَمْ أَخْرُجْ مِنْ يَدِّى لِلْحَصَادِ فى
فَجْرِ هَذَا الْيَوْمِ حَتَّى رَأَيْتُ نُورًا بِالقُرْبِ مِنَ الشَّاطِئِ ، عَلَى بُعْدِ
نِصْفِ مِيلٍ مِنْ يَدِّى . وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانَ يَرْتَادُونَ هَذِهِ
الْبُقْعَةَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَدَهَشْتُ ، وَتَمَلَّكَنِى الرُّعْبُ وَالْفَزَعُ . وَرَجَعْتُ
إِلَى يَدِّى مُسْرِعًا ، وَرَفَعْتُ السَّلْمَ ، وَتَأَهَّبْتُ لِلدَّفَاجِ عَنْ نَفْسِى .
وَوَظَلِمْتُ أَتَرَقَّبُ الْعَدُوَّ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ لَمْ أَطِقْ صَبْرًا عَلَى الْبَقَاءِ أَكْثَرَ
مِنْ ذَلِكَ ؛ فَصَعِدْتُ حَتَّى بَلَغْتُ أَعْلَى الصَّخْرَةِ - بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ عَلَيْهَا
السَّلَامَيْنِ - وَأَنْبَطَحْتُ عَلَى الْأَرْضِ . وَنَظَرْتُ إِلَيْهِمْ بِمِنْظَارِى ؛ فَرَأَيْتُ
تِسْعَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْغِيلَانِ جَالِسِينَ - فى شَكْلِ حَلَقَةٍ - حَوْلَ نَارٍ

(١) تَمَكَّتْ . (٢) غَفْلَةٌ .

مُوقَدَّةً ، لِيُهَيِّثُوا طَعَامَهُمْ مِنَ الْأَسْرِ الَّذِينَ جَاءُوا بِهِمْ إِلَى هَذِهِ الْجَزِيرَةِ .



وَقَدْ جَاءَ الْفِيلَانِ عَلَى
زَوْرَقَيْنِ ، وَجَذَبُوهُمَا
إِلَى الشَّاطِئِ ، وَانْتَظَرُوا
الْجَزَرَ حَتَّى يَمُودُوا
أُدْرَاجَهُمْ . فَعَلِمْتُ
أَنَّهُمْ لَا يَرْكَبُونَ
الْبَحْرَ إِلَّا فِي أَوْقَاتِ
الْجَزْرِ ، فَاطْمَأْنَنْتُ
نَفْسِي إِلَى ذَلِكَ ،
وَأَصْبَحْتُ أَمْشِي فِي
الْجَزِيرَةِ آمِنًا ، فِي

أَوْقَاتِ الْمَدِّ . فَإِذَا أَنْحَسَرَ مَاءُ الْبَحْرِ أَخَذْتُ حَذَرِي مِنْهُمْ ، وَاسْتَعْدَدْتُ
لِلطَّوَارِيِ وَالْمُفَاجَأَاتِ . وَلَمْ يَبْدُلِ الْجَزْرُ حَتَّى رَكَبُوا الزَّوْرَقَيْنِ ،
بَعْدَ أَنْ رَقَصُوا طَوِيلًا ، وَظَلُّوا يَجْدُفُونَ بِقُوَّةٍ حَتَّى اخْتَفَوْا عَن نَظَرِي ،

فَأَسْرَعْتُ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ فِيهِ هَوْلَاءُ الْفِيلَانِ؛ فَرَأَيْتُ



— مِنْ أَثَرِ الْمَادْبَةِ الَّتِي

أَقَامُوهَا — مَا رَوَّعَنِي؛

رَأَيْتُ الْعِظَامَ الْبَشَرِيَّةَ

مُتَنَائِرَةً حَوْلَ النَّارِ؛

فَنَارَتْ نَفْسِي، وَكَدْتُ

أَتَمِيزُ مِنَ الْغَيْطِ. وَقَدْ أَشْتَدَّ حَنْقِي ^(١) عَلَى هَذِهِ الْقَسْوَةِ، وَعَزَمْتُ عَلَى

الْفَتَكِ بِأَوَّلِ مَنْ أَقَابَلَهُ مِنْ هَوْلَاءِ الْفِيلَانِ.

ه — نَجَاةُ الْأَسِيرِ

وَضَلَلْتُ مُصِرًّا عَلَى مُنَاجَزَةِ ^(٢) الْفِيلَانِ مُدَّةً طَوِيلَةً. وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ

ثَمَانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا، لَمْ أَعْثُرْ — فِي أَثْنَائِهَا — عَلَى أَثَرٍ لِهَوْلَاءِ الْهَمِجِ.

وَفِي صَبَاحِ يَوْمٍ رَأَيْتُ عَلَى الشَّاطِئِ سِتَّةَ زَوَارِقَ؛ فَعَلِمْتُ أَنَّ عَدَدَ

الْقَادِمِينَ لَا يَقِلُّ عَنْ ثَلَاثِينَ. فَرَجَعْتُ إِلَى حِصْنِي، وَرَأَيْتُهُمْ

(١) زاد غيظي. (٢) محاربة.

بِمِنْظَارِي ؛ فَكَانَ عَدَدُهُمْ كَمَا تَوَقَّعْتُ مِنْ قَبْلُ . وَتَاهَبْتُ لِمُنَاجَزَتِهِمْ ،
كَلَّفَنِي ذَلِكَ مَا كَلَّفَنِي . وَرَأَيْتُهُمْ يَرْقُصُونَ وَقَدْ اسْتَوَلَى عَلَيْهِمْ
الْمَرْحُ^(١) . ثُمَّ أَحْضَرُوا أَسِيرِينَ ، فَقَتَلُوا أَحَدَهُمَا ، وَأَتَهَزَّ الثَّانِي فُرْصَةً
أَشْتِغَالِيهِمَا بِالْأَوَّلِ فَلَاذًا بِالْفِرَارِ . وَظَلَّ يَمْدُو بِأَقْصَى سُرْعَتِهِ ، وَتَبِعَهُ
ثَلَاثَةٌ مِنَ الْغِيلَانِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا اللَّحَاقَ بِهِ .

ثُمَّ اعْتَرَضَهُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ ؛ فَالْتَمَى بِنَفْسِهِ فِيهِ ، وَسَبَّحَ بِقُوَّةٍ عَجِيبَةٍ حَتَّى
أَدْرَكَ الشَّاطِئَ الْآخَرَ ، وَلَمْ يُبَالِ بِازْتِفَاعِ الْمَدِّ وَأَصْطِخَابِ الْأَمْوَاجِ .
وَتَمَقَّبَهُ اثْنَانِ ، وَعَادَ الثَّلَاثُ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَرَأَيْتُ الْفُرْصَةَ سَانِحَةً لِإِتْقَازِ هَذَا الْأَسِيرِ ؛ لِأَنِّي كُنْتُ فِي أَشَدِّ
الْحَاجَةِ إِلَى خَادِمٍ يُعَاوَنُنِي فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْمُقْفِرَةِ الْعَازِبَةِ .
فَاسْرَعْتُ إِلَيْهِمْ - وَفِي يَدَيَّ بُنْدُقِيَّتِي - وَأَشَرْتُ إِلَى الْأَسِيرِ أَنْ
يَقِفْ ؛ فَلَمْ تَطْمَئِنَّ نَفْسُهُ إِلَيَّ ، وَخَشِيَ أَنْ يَدْنُو^(٢) مِنِّي ، وَحَسِبَنِي
مِنْ أَعْدَائِهِ . ثُمَّ فَاجَأَتْ أَحَدَ الْمُتَوَحِّشِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعَانِي ، فَضَرَبَتْهُ
بِقَبْضَةِ بُنْدُقِيَّتِي ضَرْبَةً شَدِيدَةً ؛ فَخَرَّ صَرِيحًا^(٣) عَلَى الْأَرْضِ . وَحَاوَلَ

(١) الفرح . (٢) يقرب . (٣) وقع ساقطاً .

الثاني أن يُفَوَّقَ^(١) إِلَى سِيَامِهِ ؛ فَمَا جَلَّتْهُ بِرِصَاصِهِ أُرْدَنَتُهُ - مِنْ قُوْرِهِ - قَتِيلًا .

وَوَقَفَ الْأَسِيرُ الْهَارِبُ - حِينِيذٍ - وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّعْرُ حِينَ سَمِعَ دَوِيَّ^(٢) الرِّصَاصِ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ عَهْدٌ مِنْ قَبْلُ . فَأَشْرَتْ إِلَيْهِ أَنْ يَدْنُو مِنِّي ؛ فَتَرَدَّدَ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي . فَأَشْرَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً ثَانِيَةً ؛ فَأَشْتَدَّ فَرَعُهُ ، وَظَلَّ يَتَقَدَّمُ خُطَوَاتِ يَسِيرَةٍ^(٣) ، ثُمَّ يَقِفُ مُتَرَدِّدًا وَقَدْ أَذْهَلَهُ الرَّعْبُ . فَأَشْرَتْ إِلَيْهِ إِشَارَةً ثَالِثَةً ، وَأَنَا أَحَاوِلُ جَهْدِي أَنْ أَطْمِئِنُّهُ وَأُسْكِنَ مِنْ رُوعِهِ . فَتَقَدَّمَ حَتَّى دَانَانِي ، وَجَعَا^(٤) أَمَامِي مُتَوَسِّلًا ضَارِعًا ؛ فَهَشَشْتُ لَهُ ، فَأَنْشَى يُقْبِلُ قَدَمِي ؛ فَتَلَطَّفْتُ لَهُ مُتَوَدِّدًا حَتَّى أَذْهَبَتْ عَنْهُ الْخَوْفُ . ثُمَّ صَحَبْتُهُ إِلَى مَنَارَتِي ، وَأَطْعَمْتُهُ وَسَقَيْتُهُ ، وَأَشْرْتُ إِلَى كَوْمَةٍ مِنْ الْقَشِ ، لِيَتَّخِذَهَا فِرَاشًا لَهُ ؛ فَذَهَبَ لِيَنَامَ .

٦ - دَجَنَمَةُ ،

وَهَلَكْنَا اتَّقَفَى زَمَنُ الْغَزَاةِ ، وَأَصْبَحَ لِي - مِنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ -

(١) يُوَفَّقُ . (٢) صَوْت . (٣) قَلِيلَةٌ . (٤) قَعَدَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ .

رَفِيقٌ أَمِينٌ ، شُجَاعُ الْقَلْبِ ، فِي مُقْتَبَلِ شَبَابِهِ : لَمْ تَكُنْ سِنُهُ
تَزِيدُ عَلَى خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ عَامًا . وَكَانَ هَذَا الْخَادِمُ مِثَالِ النَّشَاطِ
وَالذِّكَاةِ وَالْوِدَاعَةِ .

وَلَمْ يَنْمَ نِصْفَ سَاعَةٍ حَتَّى اسْتَيْقَظَ ، وَخَرَجَ مِنَ الْكَهْفِ
مُسْرِعًا ، إِلَى أَنْ وَصَلَ إِلَى — وَكُنْتُ أَخْلُبُ عَنَّا — فَاَنْطَرَحَ عَلَى
قَدَمِي ، وَرَفَعَهَا فَوْقَ رَأْسِهِ ، لِيُفْهِمَنِي أَنَّهُ طَوَّعَ أَمْرِي وَرَهْنُ إِشَارَتِي .
فَهَشَشْتُ لَهُ وَأَقْبَلْتُ عَلَيْهِ حَتَّى رَكَنَ إِلَيَّ ، وَسُرِّيَ عَنْ نَفْسِهِ ^(١) ،
وَانْقَضَى مَا كَانَ يُسَاوِرُهُ ^(٢) مِنْ الْفَلَقِ .

ثُمَّ بَدَلْتُ جُهْدِي فِي تَعْلِيمِهِ لَمَتْنِي ، لِيَسْهَلَ عَلَيْنَا أَنْ نَتَفَاهَمَ مَعًا .
وَقَدْ سَمَّيْتُهُ « جُمُعَةً » ؛ لِأَنِّي أَقْدَرْتُهُ مِنَ الْهَلَاكِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ
الْجُمُعِ ، وَهُوَ أَوَّلُ يَوْمٍ عَرَفْتُهُ فِيهِ . ثُمَّ أَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُسَمِّيَنِي
« السَّيِّدَ » ، وَعَلَّمْتُهُ لَفْظَتِي : « نَعَمْ » وَ « لَا » . ثُمَّ قَدَّمْتُ لَهُ جِرَّةً ،
وَمَلَأْتُ الْجِرَّةَ لَبَنًا ، وَغَمَسْتُ فِيهَا قِطْعَةً مِنَ الْخُبْزِ وَأَكَلْتُ .
وَأَشَرْتُ إِلَيْهِ أَنْ يَأْكُلَ مِثْلِي ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ فِي تَقْلِيدِي فِيمَا رَأَى مِنِّي .

(١) ذهب منه . (٢) يشغله .

وَقَدْ اسْتَسَاغَ هَذَا الطَّعَامَ^(١) ، وَبَدَأَ عَلَى وَجْهِهِ السُّرُورُ . ثُمَّ صَنَعَتْ لَهُ
ثِيَابًا كَثِيَابًا ، وَقَلَنْسُوءَةً مِنْ جِلْدِ أَرْنَبٍ . وَصَنَعَتْ لَهُ - فِي الْيَوْمِ
التَّالِي - كُوْخًا



بِالْقُرْبِ مِنْ كَهْفِي
لِيَنَامَ فِيهِ ؛ لِأَنِّي
كُنْتُ أَخْشَى أَنْ
تَعَاوِدَهُ^(٢) وَحَشِيَّتُهُ ،
فَيَقْتِكَ بِي - فِي
أَثْنَاءِ نَوْمِي -
وَيَأْكُلَنِي .

عَلَى أَنْ الْيَّامَ
أَقْنَعْتَنِي - بَعْدَ
ذَلِكَ - بِإِخْلَاصِهِ ؛

فَلَمْ أَرِنِي فِي حَاجَةٍ إِلَى الْحَذَرِ مِنْهُ . وَقَدْ وَفَى لِي^(٣) وَفَاءَ الْوَلَدِ لِأَبِيهِ ،

(١) وجده للبدأ . (٢) ترجع إليه . (٣) حافظ على .

وَكَانَ مُسْتَعِدًّا لِبَذْلِ رُوحِهِ فِدَاءً لِي . وَمَرَّتْ بِنَا الْآيَّامُ سَعِيدَةً وَادِعةً ^(١) .

وَكَُنْتُ - فِي ذَاتِ يَوْمٍ - سَائِرًا مَعَ « جُنْمَةٍ » فِي أَحَدِ الْأَخْرَاجِ ،
فَأُطْلِقْتُ رَصَاصَةً عَلَى أَحَدِ الْجِدَاءِ ؛ فَصَرَغْتُ ^(٢) . وَمَا رَأَيْتُ صَرَغْتُ

الْجَدْيَ - وَأَنَا عَلَى مَسَافَةٍ

بَعِيدَةٍ مِنْهُ - حَتَّى اشْتَدَّ

دُغْرُهُ ، وَانْتَضَمَهُ الرُّعَاشُ

مِمَّا رَأَى وَسَمِعَ . فَقَدْ

أَذْهَلَهُ صَوْتُ الرِّصَاصَةِ ،

وَوَظَلَ يَبْحَثُ فِي ثِيَابِهِ ،

وَهُوَ يَخْشَى أَنْ تَكُونَ

قَدْ أَصَابَتْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

يَشْعُرُ . فَلَمَّا أَيقَنَ أَنَّهُ لَمْ

يُصِيبْهُ أَقْلُ ضَرَرٍ ، انْطَرَحَ عَلَى قَدَمِي ضَارِعًا ^(٣) أَلَّا أَقْتُلَهُ .

فَعَطَمْتُهُ - مَرَّةً أُخْرَى - وَلَا طَفَقْتُ ، وَأَشْرَفْتُ إِلَيْهِ أَنْ



(١) هادئة . (٢) تزلزله . (٣) راجعاً .

يَذْهَبَ لِيُخْضِرَ الْجَدَى . ثُمَّ أَرَيْتُهُ بُنْدُقِيَّتِي ، وَصَوَّبْتُهَا إِلَى بَيْغَاءِ
جَائِمَةٍ^(١) عَلَى شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ ، وَأَخْبَرْتُهُ أَنِّي أُرِيدُ صَيْدَ تِلْكَ الْبَيْغَاءِ .
وَمَا أَطْلَقْتُ عَلَيْهَا الرِّصَامَةَ حَتَّى أَشْتَدَّ دُغْرُهُ ، وَعَجِبَ مِمَّا فَعَلْتُ أَشَدَّ
الْعَجَبِ ، وَتَمَلَّكَتُهُ الْحَيْرَةُ ؛ وَأَصْبَحَ يَرْتَمِدُ خَوْفًا كُلَّمَا رَأَى تِلْكَ الْبُنْدُقِيَّةَ .
وَكَانَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يُكَلِّمُهَا مُسْتَعِظًا ، ضَارِعًا إِلَيْهَا أَنْ تُبْقِيَ عَلَى حَيَاتِهِ ،
وَأَلَّا تَصْرَعَهُ كَمَا صَرَعَتْ غَيْرَهُ مِنْ قَبْلُ ! وَلَمَّا جَاءَ الْمَسَاءُ سَلَخْتُ الْجَدَى ،
وَشَوَيْتُهُ ، وَأَطْمَنْتُ « جُمُعَةً » مِنْ لَحْمِهِ ؛ فَاسْتَمْرَأَهُ^(٢) . وَأَصْبَحَ
— مُنْذُ ذَلِكَ الْيَوْمِ — يَمَافُ^(٣) اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ، وَلَا يَسْتَسِيغُهُ طَعَامًا .

٧ — نَشَاطُ « جُمُعَةٍ »

وَفِي الْأَيَّامِ التَّالِيَةِ دَرَّبْتُ « جُمُعَةً » عَلَى الْحَرْثِ وَالْبَذْرِ ، وَوَضَعْتُ
الشَّعِيرَ فِي السَّلَالِ ، وَطَحَنِيهِ وَعَجْنِيهِ وَخَبَزْتُهُ . وَلَمْ يَمُضِ عَلَيْهِ زَمَنٌ يَسِيرُ
حَتَّى أَكْسَبَتْهُ الْمَرَانَةُ قُدْرَةً نَادِرَةً عَلَى صُنْعِ كُلِّ شَيْءٍ دَرَّبْتُهُ عَلَيْهِ .
وَأَصْبَحَ لِي خَيْرَ مِعْوَانٍ ، بِفَضْلِ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنْ الذِّكَاةِ وَالنَّشَاطِ

(١) قَاعَةٌ . (٢) اسْتَحْنَهُ . (٣) يَكْرَهُ .

وَالْإِخْلَاصِ . وَشَعَرْتُ بِالسَّعَادَةِ تَعَمَّرُنِي ^(١) ، مُنْذُ وَجَدْتُ ذَلِكَ الْمَعِينَ
الَّذِي كُنْتُ . وَقَدْ أَصْبَحَ يُخْلِصُنِي بِمِقْدَارِ مَا أُخْلِصُ لَهُ ؛ وَتَوَثَّقْتُ
أَوَاصِرُ الْمَحَبَّةِ بَيْنَنَا ، وَعَرَفَ أَسْمَاءَ الْأَشْيَاءِ الَّتِي نَحْتَاجُ إِلَيْهَا ، وَحَدَّقَ
تَخْطِيطَ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَمَسَالِكَهَا ؛ فَأَرَاخِنِي مِنَ الْعَنَاءِ ، وَوَفَّرَ لِي
أَسْبَابَ الرِّاحَةِ ، وَكَانَ لِي نِعَمَ الْأَنْبَسِ .

٨ - وَطَنُ « جُمُعَة »

وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ جَرْنَا الْحَدِيثَ إِلَى الْكَلَامِ عَنِ الْوَطَنِ ؛ فَسَأَلْتُهُ
عَنْ طَرِيقِ الْوُصُولِ إِلَى وَطَنِهِ ، وَهَلْ يَأْمَنُ رَاكِبُ الْبَحْرِ عَلَى نَفْسِهِ
فِي أَتْنَاءِ هَذِهِ الطَّرِيقِ ؟ فَأَثْبَتَ أَنَّ الْوُصُولَ إِلَى وَطَنِهِ أَمْرٌ مَيْسُورٌ .
وَعَلَّ يَحْدِثُنِي عَنْ وَطَنِهِ أَحَادِيثَ الْمُتَجَبِّ الْمَفْتُونِ بِهِ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي
أَنَّ فِي الْجِهَةِ الْغَرْبِيَّةِ مِنْ بِلَادِهِمْ قَوْمًا بِيضَ الْوُجُوهِ ؛ فَأَذْرَكْتُ أَنَّهُ
يَعْنِي بِذَلِكَ قَوْمًا مِنَ الْإِسْبَانِيِّينَ ، وَأَنَّ طَرِيقَ الذَّهَابِ إِلَيْهِمْ مَيْسُورٌ
مَأْمُونٌ . فَأَنْفَتَحَ أَمَامِي بَابُ الْأَمَلِ عَلَى مِصْرَاعَيْهِ ، وَتَبَيَّنْتُ أَنَّ خَلَاصِي
مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ قَرِيبٌ . وَعَقَدْتُ الْمَزْمَ عَلَى إِعْدَادِ الْمَعْدَّاتِ لِلْسَّفَرِ

(١) تَمَلَّأْتُ نَفْسِي .

إلى هؤلاء القوم ، حيثُ أجدُ الوسائلَ مُهيَّاةً لِلرُّجُوعِ إلى وَطَنِي .



ثُمَّ حَدَّثَنِي أَنَّ زَوْزَقًا كَبِيرًا
قَدْ أَتَقَلَّبَ بِرَأْيِهِ - مِنْذُ
أَعْوامٍ - وَكَانُوا سَبْعَةَ عَشَرَ
رَجُلًا مِنَ الْبَيْضِ أَمْثَالِي ، وَقَدْ
نَجَّوْا مِنَ الْفَرَقِ ، وَأَقَامُوا
- وَمَا زَالُوا يُقِيمُونَ - بَيْنَ
عَشِيرَتِهِ وَقَوْمِهِ .

فَسَأَلْتُهُ : « وَكَيْفَ سَلِمُوا
مِنْ عَشِيرَتِكَ وَقَوْمِكَ ؟
أَلَمْ يَأْكُلُوهُمْ ؟ »
فَقَالَ لِي مُتَبَيِّنًا :

« بَلْ أَصْبَحُوا إِخْوَةً لَنَا ؛ فَإِنَّ بَنِي وَطَنِي لَا يَأْكُلُونَ إِلَّا أَسْرَاهُمْ
فِي الْحَرْبِ : أَمَّا الْأَصْدِقَاءُ الْمُسَالِمُونَ فَلَا يَنَالُونَهُمْ بِسُوءٍ . »

٩ - ذِكْرِيَاتُ الْوَطَنِ

وَمَضَى عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ زَمَنٌ طَوِيلٌ . ثُمَّ أَرْتَقَيْنَا^(١) - ذاتَ
يَوْمٍ - قِمَّةَ جَبَلٍ شَاهِقٍ^(٢) ، وَكَانَ الْجَوُّ صَحْوًا ؛ فَلَا حَتَّ^(٣) الْقَارَةُ
الْبَعِيدَةُ . وَمَا أُنْعَمَ « جُمُعَةُ » نَظَرُهُ مُتَبَيِّنًا مِنْ رُؤْيَا وَطَنِهِ حَتَّى غَلَبَهُ
السُّرُورُ عَلَى أَمْرِهِ ؛ فَظَلَّ يَقْفِزُ مِنَ الْقَرَّاحِ ، وَيَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ :
« وَافْرَحْتَاهُ ! وَاطْرَبَاهُ ! هَآنَذَا أَرَى بِلَادِي ! هَآنَذَا أَرَى وَطَنِي ! »
وَأَمْتَلَأَ وَجْهَهُ بِشَرًّا وَسُرُورًا ، وَارْتَسَمَتْ عَلَى أَسَارِيرِهِ^(٤) دَلَائِلُ
الْحَيْنِ وَالشَّوْقِ إِلَى وَطَنِهِ ، فَسَأَلَتْهُ :
« أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى بِلَادِكَ ؟ »
فَأَجَابَنِي ، وَهُوَ يَتَحَرَّقُ شَوْفًا :
« لَيْتَ هَذِهِ الْأُمْنِيَّةُ تَتَحَقَّقُ ، يَا سَيِّدِي ! »
فَقُلْتُ لَهُ :

« وَمَاذَا تَصْنَعُ فِي بِلَادِكَ ؟ أَتُحِبُّ أَنْ تَعُودَ إِلَى وَحْشِيَّتِكَ ، وَتَرْتَدَّ

(١) صعدنا . (٢) عال . (٣) ظهرت . (٤) خطوط جبينه .

إِلَى طَبِيعَتِكَ الْأُولَى ، فَتُصْبِحَ غُولا تَأْكُلُ اللَّحْمَ الْبَشَرِيَّ ؟ »
فَقَالَ لِي ، فِي غَيْرِ تَرَدُّدٍ :

« كَلَّا ، كَلَّا . . . فَإِنَّ « جُمُعَةَ » لَنْ يَمُودَ غُولا كَمَا كَانَ ! وَسَوْفَ
يُقْصُ عَلَى قَوْمِهِ كَيْفَ أَصْبَحَ يَسْتَمْرِي الْخُبْزَ وَاللَّبَنَ وَلَحْمَ الْأَغْنَامِ ،
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ لَذَائِذِ الطَّعَامِ . أَمَّا لَحْمُ الْإِنْسَانِ فَقَدْ أَصْبَحَ « جُمُعَةُ »
يَمَافُهُ وَلَا يُطِيقُ أَنْ يُفَكِّرَ فِي اتِّخَاذِهِ طَعَامًا لَهُ . »
فَقُلْتُ لَهُ : « لَوْ عَرَفُوا مِنْكَ ذَلِكَ لَا أَكُلُوكَ ! »

فَقَالَ لِي : « كَلَّا ، لَا يَأْكُلُونَنِي ، بَلْ يَتَمَلَّؤُونَ مِنِّي كَيْفَ يُنْظَمُونَ
حَيَاتَهُمْ ، وَكَيْفَ يَسْتَسِيغُونَ أَطْيَبَ الْأَطْعِمَةِ . »
فَسَأَلْتُهُ : « أَتُحِبُّ أَنْ تَمُودَ إِلَى بِلَادِكَ الْآنَ ؟ »
فَقَالَ لِي مُبْتَسِمًا :

« لَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَقْطَعَ هَذِهِ الْمَسَافَةَ الطَّوِيلَةَ سِيَّاحَةً . »
فَوَعَدْتُهُ بِإِعْدَادِ زَوْرَقٍ يُوصِلُهُ إِلَى وَطَنِهِ ؛ فَقَالَ لِي : « حَبِّذَا ذَلِكَ
لَوْ تَمَّ ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ . وَسَتَرَى كَيْفَ يَمُرُّكَ
أَهْلُ وَطَنِي بِالْحُبِّ ، وَلَنْ يُفَكِّرَ أَحَدٌ فِي أَنْ يَأْكَلَكَ ، وَلَا سِيَّما

إِذَا أَحْبَبْتَهُمْ بِأَنَّكَ أَتَقَذَّتْ حَيَاتِي مِنَ الْهَلَاكِ .
 وَمَا زَالَ يُحِبُّ إِلَى الدَّهَابِ مَعَهُ إِلَى وَطَنِهِ ، وَيَقْصُّ عَلَى كَيْفَ
 أَكْرَمُوا جَمَاعَةَ أَلْيَاضِ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَيْهِمْ مُنْذُ زَمَنِ طَوِيلٍ ، وَكَيْفَ
 أَنْسُوا بِهِمْ ، وَأُرْتَاخُوا إِلَى عِشْرَتِهِمْ ؛ حَتَّى أَجْمَعْتُ أَمْرِي ^(١) وَتَأَهَّبْتُ
 لِهَذِهِ الرُّحْلَةِ ؛ لَعَلِّي أَتَمَكَّنُ مِنَ الْعَوْدَةِ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى وَطَنِي .

١٠ - الْمَرْكَبُ الشَّرَاعِيُّ

وَأَشْتَدَّتْ رَغْبَتِي فِي تَحْقِيقِ هَذَا الْعِلْمِ الْجَمِيلِ ، فَذَهَبْتُ مَعَ
 « جُمُعَةٍ » إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي وَضَعْتُ فِيهِ زَوْرَقِي ، ثُمَّ رَكِبْنَاهُ مَعًا ؛
 فَرَأَيْتُ « جُمُعَةً » أَمَرَ مِنِّي وَأَقْدَرَ عَلَى مُتَابَعَةِ السَّيْرِ وَمُضَاعَفَةِ السَّرْعَةِ .
 فَقُلْتُ لَهُ : « أَفِي اسْتَطَاعَتِكَ الْآنَ أَنْ تَذْهَبَ إِلَى وَطَنِكَ ؟ »
 فَقَالَ : « لَنْ يَحْتَمِلَ هَذَا الزَّوْرَقُ الصَّغِيرُ تِلْكَ الرُّحْلَةَ الطَّوِيلَةَ . »
 فَقُلْتُ لَهُ : « عَلَيْنَا أَنْ نَعِدَّ زَوْرَقًا أَكْبَرَ مِنْهُ لِنَرْكَبَهُ إِلَى وَطَنِكَ . »
 فَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ إِلَى الْأَرْضِ ، وَقَالَ لِي مُتَأَلِّمًا مَخْزُونًا :

« ما الذى أَغْضَبَ سَيِّدِي عَلَى ؟ وما بالُ سَيِّدِي يُحَاوِلُ أَنْ يُقْصَى ^(١) عَنْهُ خَادِمُهُ جُمُعَةً ؟ »

فَقُلْتُ لَهُ : « أَلَا تَتَمَنَّى أَنْ تَعُودَ إِلَى وَطَنِكَ ؟ »

فَقَالَ : « نَعَمْ ، نَعَمْ ، أَتَمَنَّى ذَلِكَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي ، عَلَى أَنْ أَكُونَ رَفِيقَكَ فِي الْعُودَةِ إِلَى بِلَادِي . أَمَّا أَنْ أَتْرُكَ صُحْبَتَكَ وَأَعُودَ وَخْدِي ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى ذَلِكَ . فَلَيْسَ فِي قُدْرَتِي أَنْ أَحْتَمِلَ فِرَاقَكَ بَعْدَ أَنْ أُمْتَلَأَ قَلْبِي بِحُبِّكَ ، أَيُّهَا السَّيِّدُ الْكَرِيمُ ، الَّذِي غَمَّرَنِي بِعَطْفِهِ ، وَطَوَّقَ عُنُقِي بِصَنَائِمِهِ ^(٢) . » فَتَظَاهَرْتُ بِالْإِصْرَارِ ^(٣) لِأَخْتِبَرُ مَدَى حُبِّهِ إِيَّايَ .

فَلَمَّا رَأَى جَادًّا فِي رَفْضِي ، غَابَ عَنِّي قَلِيلًا ، ثُمَّ عَادَ إِلَيَّ وَفِي يَدِهِ قَدُومٌ ، وَقَالَ لِي ، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الْيَأْسُ وَالْحُزْنُ :

« بِرَبِّكَ أَقْتُلْنِي بِهَذِهِ الْقَدُومِ ، وَأَرِحْنِي مِنَ الْحَيَاةِ ، مَا دُمْتُ مُصِرًّا عَلَى إِرْسَالِ « جُمُعَةٍ » إِلَى قَوْمِي ! »

فَلَمْ أَتَرَدَّدْ فِي إِيْظَارِ مُوَافَقَتِي عَلَى السَّفَرِ مَعَهُ ، بَعْدَ أَنْ بَلَوْتُ إِخْلَاصَهُ ^(٤) ، وَعَرَفْتُ مَدَى حُبِّهِ إِيَّايَ . وَوَعْدَتُهُ بِتَحْقِيقِ أَمْنِيَّتِهِ فِي

(١) يَعْنِي بِذَلِكَ تَحْقِيقَ أَمْنِيَّتِهِ . (٢) بِذَلِكَ صَنَائِمُهُ الْجَمِيلَةَ . (٣) الْعِزْمُ وَالْجَبَاتُ . (٤) عَزَمَتْهُ .

مُراقبته إلى وطنه . ولم نُضِعْ وَقْتَنَا عَبَثًا ، بَعْدَ أَنْ عَزَمْنَا عَلَى الْقِيَامِ
 بِهَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ ؛ فَذَهَبْنَا إِلَى شَجَرَةٍ عَظِيمَةٍ فَقَطَعْنَاهَا . وَمَا زِلْنَا
 دَائِبِينَ^(١) فِي الْعَمَلِ حَتَّى صَنَعْنَا زَوْزَقًا كَبِيرًا فِي خِلَالِ شَهْرٍ كَامِلٍ .
 وَبَعْدَ خَمْسَةِ عَشَرَ يَوْمًا ، أُسْتَطَعْنَا أَنْ نُنْزِلَ الزَّوْزَقَ فِي الْبَحْرِ . وَقَدْ
 تَكَبَّدْنَا^(٢) فِي سَبِيلِ ذَلِكَ عَنَاءٌ لَا يُوصَفُ . وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا شَهْرَانِ بَعْدَ
 هَذَا ، حَتَّى أَتَمَعْنَا صُنْعَ الشَّرَاجِ وَالسَّارِيَةِ ، كَمَا أَنْجَزْنَا صُنْعَ السُّكَّانِ^(٣)
 وَقَدْ بَدَلْتُ الْجُهْدَ فِي تَدْرِيبِ « جُمُعَةٍ » عَلَى تَسْيِيرِ هَذَا الْمَرْكَبِ
 الشَّرَاعِيِّ حَتَّى حَذَقَهُ وَأَتَقَنَهُ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْمَرْكَبِ الشَّرَاعِيِّ
 عَهْدٌ ، وَلَمْ يَرَ لَهُ شَيْهًا طَوَّلَ عُمرِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ قَوْمُهُ لَا يَعْرِفُونَ إِلَّا
 الْجَذْفَ وَحَدَهُ ؛ أَمَّا أُسْتِخْدَامُ الشَّرَاجِ وَالسُّكَّانِ ، فَذَلِكَ مَا لَمْ يَأْلُقُوهُ ،
 وَلَمْ يَسْمَعُوهُ بِهِ . وَقَدْ أَكْسَبَتْهُ الْمَرَانَةُ قُدْرَةً عَجِيبَةً عَلَى تَسْيِيرِ مَرْكَبِنَا
 الشَّرَاعِيِّ ، وَأَصْبَحَ — بَعْدَ قَلِيلٍ مِنَ الزَّمَنِ — رُبَّانًا^(٤) مَاهِرًا .

وَهَكَذَا تَمَّ لَنَا إِعْدَادُ الْمُدَّةِ لِلسَّفَرِ إِلَى وَطَنِ « جُمُعَةٍ » ، وَلَمْ
 يُعَوِّزْنَا^(٥) شَيْءٌ مِنَ الْمَعْدَّاتِ .

(١) مواظبين . (٢) قاسينا . (٣) البلة . (٤) قائد سفينة . (٥) لم ينقصنا .

١١ - حَرْبُ الْأَعْدَاءِ

وَمَضَتْ عَلَى ثَلَاثِ سَنَوَاتٍ بَعْدَ ذَلِكَ . وَقَدْ أَصْبَحَتِ الْجَزِيرَةُ
- جِينْدِ - جَنَّةَ نَصْرَةٍ^(١) ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مَتْنَى مُوحِشًا . فَقَدْ آلَسِي
« جُمُعَةُ » بَعْدَ وَحْشَةٍ ، وَتَغَلَّبَ إِخْلَاصُهُ وَحُبُّهُ عَلَى كُلِّ عَقَبَةٍ اعْتَرَضَتْهَا
فِي حَيَاتِنَا .

وَجَاءَ الْعَامُ السَّادِسُ وَالْعِشْرُونَ ، وَأَنَا أَتَرَقَّبُ الْخَلَاصَ مِنْ هَذِهِ
الْجَزِيرَةِ . فَلَمَّا أَقْبَلَ الشِّتَاءُ ، وَضَعْنَا الزَّوَارِقَ فِي مَكَانٍ أَمِينٍ ، حَتَّى
أَتَقَضَى « نُوقَمِبِرُ » وَ « دِيسَمِبِرُ » . ثُمَّ أَخَذْنَا نُهَيِّئُ الْأَسْبَابَ ،
وَنَسْتَكْمِلُ مُهَدَّاتِ السَّفَرِ إِلَى وَطَنِ « جُمُعَةُ » .

وَلَمَّا لَجَدَانِ - فِي صَبَاحِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَقَدْ خَرَجَ « جُمُعَةُ »
لِصَيْدِ السَّلَاحِ كَمَا ذَكَرْتُهُ - إِذْ مَادَ إِلَى مُسْرِعًا ، وَهُوَ يَرْتَجِفُ مِنْ شِدَّةِ
الدُّغْرِ ، وَيَصِيحُ خَائِفًا : « يَا لِهَوْلٍ ، يَا سَيِّدِي ! »

فَسَأَلْتُهُ : « أَيُّ هَوْلٍ تَعْنِي ؟ »

فَقَالَ : « ثَلَاثَةُ زَوَارِقَ تَذْئُلُونَا إِلَيْنَا ، قَادِمَةً عَلَيْنَا . »

(١) بجيلة خضراء .

فَظَلِمْتُ أَطْمَئِنُّهُ وَأَسْرِى عَنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ لَا يَكَادُ يُصْنِى لِمَا أَقُولُ ؛
فَقَدْ كَانَ مُوقِنًا أَنَّ أَعْدَاءَهُ لَمْ يَمُودُوا إِلَى الْجَزِيرَةِ إِلَّا لِيَبْحَثُوا عَنْهُ ، وَيَمَزَّقُوا
جِسْمَهُ ، وَيَشْوُوهُ عَلَى
النَّارِ !



فَقُلْتُ لَهُ : « تَشَجَّعْ
يَا « جُمُعَةُ » ؛ افْلَنْ
يُفِيدُكَ الْجَزَعُ شَيْئًا ،
وَلَنْ يُبَيِّقَ الْأَعْدَاءُ عَلَى
أَحَدٍ مِنَّا إِذَا ظَفَرُوا
بِهِ . وَلَيْسَ لَنَا إِلَّا

أَنْ نُوْطِنَ نَفْسَيْنَا^(١) عَلَى قِتَالِهِمْ . وَسَأَبْذُلُ نَفْسِي مِنْ أَجْلِكَ ، فَلَا تُخَالِفْ لِي
أَمْرًا . وَسَتَرَى كَيْفَ نَخْصِدُهُمْ^(٢) بِرِصَاصِنَا حَصْدًا .
وَمَا زِلْتُ بِهِ حَتَّى أَعَدْتُ إِلَيْهِ شَجَاعَتَهُ ؛ فَبَيَّ عَزَمُهُ عَلَى أَنْ يَسْتَبْسِلَ^(٣)
فِي قِتَالِهِمْ ، حَتَّى نَنْتَصِرَ عَلَيْهِمْ أَوْ نَمُوتَ كَرِيَمَيْنِ .

(١) نقويهما . (٢) نهلكهم . (٣) يعرض نفسه للموت

وَتَأْهَبْنَا لِمُحَارَبَتِهِمْ ، فَارْتَقَيْتُ قِمَّةَ الْجَبَلِ ؛ فَرَأَيْتُ - مِنْ خِلَالِ
مِنْظَارِي - وَاحِدًا وَعِشْرِينَ رَجُلًا جَالِسِينَ حَوْلَ النَّارِ . فَتَزَلْتُ إِلَى
سَفْحِ الْجَبَلِ ^(١) ، وَأَرْسَلْتُ « جُمُعَةً » لِيَتَعَرَّفَ مَا يَصْنَعُونَهُ ؛ فَعَادَ
إِلَيَّ - بَعْدَ قَلِيلٍ - وَأَخْبَرَنِي أَنَّهُمْ يَشُورُونَ أَحَدَ الْأُمَرَى عَلَى النَّارِ



لِيَأْكُلُوا لَحْمَهُ . فَذَهَبْتُ إِلَى الْغَايَةِ وَمَعِيَ « جُمُعَةٌ » ، وَاخْتَفَيْنَا بَيْنَ
أَشْجَارِهَا الْكَثِيفَةِ ، حَتَّى أَصْبَحْنَا عَلَى مَسَافَةِ قَرِيبَةٍ مِنَ الْأَعْدَاءِ ؛

فَرَأَيْنَا رَجُلًا أَيْبَضَ الْوَجْهَ ، مُلْتَحِيًا ، مَشْدُودَ الْوَتَاقِ ، مَطْرُوحًا عَلَى الرَّمْلِ
 فَصَبَرْتُ عَلَيْهِمْ ، حَتَّى إِذَا شَرَعُوا فِي حَلِّ وَثَاقِهِ ، أَمَرْتُ « جُمُعَةً »
 أَنْ يُطْلِقَ الرِّصَاصَ مَعِيَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ . وَكَانَتْ مُفَاجَأَةً عَجِيبَةً ؛
 فَقَدْ قَتَلَ « جُمُعَةٌ » - وَخَدَهُ - اثْنَيْنِ مِنْهُمْ وَجَرَحَ ثَلَاثَةً ،
 وَقَتَلْتُ رَجُلًا وَاحِدًا وَجَرَحْتُ اثْنَيْنِ



وَمَا سَمِعَ الْأَعْدَاءَ
 دَوَى الرِّصَاصِ ، وَرَأَوْا
 مَا حَلَّ بِأَصْحَابِهِمْ مِنْ
 الْهَلَاكِ وَالْأَذَى ، حَتَّى
 تَمَلَّكَهُمْ الْخَوْفُ ،
 وَاسْتَخَوَذَ عَلَيْهِمْ

الذُّعْرُ ؛ فَلَاذُوا بِالْفِرَارِ ^(١) ، وَهُمْ لَا يَكَادُونَ يُصَدِّقُونَ بِالنَّجَاةِ . وَرَكَبُوا
 زَوْرَقَيْنِ لِيَهْرُبُوا إِلَى بِلَادِهِمْ مِنْ هَذِهِ الصَّوَاعِقِ الَّتِي لَمْ يَرَوْا لَهَا ،
 فِي حَيَاتِهِمْ ، مَثِيلًا . فَاقْتَرَبْتُ مِنَ الرَّجُلِ الْأَيْبَضِ وَحَيَّيْتُهُ ؛ فَوَجَدْتُهُ

(١) لجأوا إلى الهرب .

أَقْرَبَ إِلَى الْمَوْتِ مِنْهُ إِلَى الْحَيَاةِ . فَكَكْتُ وَثَاقَهُ ، وَسَقَيْتُهُ وَأَطْعَمْتُهُ ،
حَتَّى عَادَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ ، وَأَفَاقَ مِنْ إِغْمَاءَتِهِ ؛ فَشَكَرَ لِي صَنِيعِي أَحْسَنَ
الشُّكْرِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّهُ إِسْبَانِي الْأَصْلَ ، وَأَنَّ سُوءَ حَظِّهِ أَوْقَعَهُ
أَسِيرًا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ .

١٢ - أَبُو « جُمُعَة »

وَرَأَى « جُمُعَة » زُورَقًا تَرَكَهُ الْأَعْدَاءُ ؛ فَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ تَرْكَبَهُ
لِنُطَارِدِهِمْ وَنَمْلًا قُلُوبَهُمْ رُغْبًا وَهَلَمًّا . فَأَعْجَبَنِي اقْتِرَاحُهُ ، وَمَا وَصَلْنَا إِلَى
الزُّورَقِ ، حَتَّى رَأَيْنَا فِيهِ أَسِيرًا ثَالِثًا . فَكَكْتُ وَثَاقَهُ ، وَحَاوَلْتُ أَنْ
أُنْهَضَهُ عَلَى قَدَمَيْهِ ؛ فَوَجَدْتُهُ لَا يَتَمَسَّكُ ، مِنْ شِدَّةِ الضَّعْفِ وَالْخَوْفِ .



وَلَمْ يَرَ « جُمُعَة » هَذَا
الْأَسِيرَ حَتَّى ارْتَمَى عَلَيْهِ
يُقَبِّلُهُ وَيُمَانِقُهُ ، وَقَدْ أَذْهَلَهُ
الْفَرَحُ حَتَّى كَادَ يُسَلِّمُهُ إِلَى
الْجُنُونِ . فَظَلَّ يَبْكِي
وَيَضْحَكُ وَيَقْفِزُ وَيَرْقُصُ

وَيَفْرُكُ يَدَيْهِ ، وَيَمَضُ أُنَامِلَهُ ، وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ ، وَيُنْعَى ، وَأَنَا أَحَاوِلُ أَنْ



أَسْتَوْضِحُهُ سِرَّ هَذَا
الْخَبَالِ^(١) ، وَهُوَ لَا
يُصْنَعِي إِلَيَّ . ثُمَّ هَذَا
قَلِيلًا ، وَالتَفَتَ إِلَى
قَائِلًا : « إِعْلَمَنَّ أَنَّ هَذَا
الْأَسِيرَ هُوَ أَبِي . وَقَدْ
أَثَقَدَهُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْكَ .

فَكَيْفَ لَا يَتَلَكَّنِي الْفَرَحُ وَالطَّرَبُ ! »

فَتَرَكَتُهُ فِي فَرَحِهِ ، وَأَعْجَبْتُ بِهَذَا الْحُبِّ الْبَنَوِيِّ . وَقَدْ أَقْبَلَ
« جُمُعَةً » عَلَى أَبِيهِ يُدْفِنُهُ وَيَتَمَهَّدُهُ — فِي حُنُوِّ الْوَلَدِ الشَّفِيقِ الْبَارِّ —
وَيَفْرُكُ لَهُ سَاقَيْهِ اللَّتَيْنِ أَضُرَّ بِهِمَا الْوِثَاقُ ، وَيَسْقِيهِ تَارَةً ، وَيُطِئِمُهُ
تَارَةً أُخْرَى ، حَتَّى أَعَادَ إِلَيْهِ قُوَاهُ .

فَأَمَرْتُ « جُمُعَةً » أَنْ يُنْعَى^(٢) بِالرَّجُلِ الْإِسْبَانِيِّ — كَمَا عُنِيَ بِأَبِيهِ — فَلَمَّ

(١) الجنون . (٢) يهنئ .



يَتَرَدَّدُ فِي إِطَاعَةِ أَمْرِي .
ثُمَّ حَمَلْنَا الْإِسْبَانِيَّ
وَأَبَا « جُمُعَةَ » عَلَى لَوْحٍ
مِنَ الْخَشَبِ ، لِنَجِّيهمَا
عَنِ السَّيْرِ ، حَتَّى وَضَعْنَاهُمَا
فِي خِيَمَةٍ أَقَمْنَاهَا

بِالْقُرْبِ مِنَ الْحِصْنِ ، وَأَعَدَدْنَا لِكُلِّ مِنْهُمَا فِرَاشًا مِنَ الْقَشِّ . وَكَانَ
« جُمُعَةُ » خَيْرَ تَرْجُمَانٍ
يَنْقُلُ لِي مَا يَقُولُهُ أَبُوهُ
وَالْإِسْبَانِيُّ الَّذِي أَتَقَنَّ
لُفَّةَ أَعْدَائِهِ ، لَطُولِ
عِشْرَتِهِ وَإِقَامَتِهِ بَيْنَ
ظَهْرَانِيهِمْ ^(١) .



ثُمَّ أَمَرْتُ « جُمُعَةَ » أَنْ يَدْفِنَ الْقَتْلَى ، حَتَّى لَا تَقْسُدَ جُثَّتُهُمْ ،
فَتُعَذِّبَ رَائِحَتُهَا الْأَمْرَاضَ الْخَبِيثَةَ ؛ فَقَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ خَيْرَ قِيَامٍ .

١٣ - بَعْدَ فِرَارِ الْأَعْدَاءِ

وَقَضَيْنَا زَمَنًا طَوِيلًا ، وَنَحْنُ نَتَّاعُونَ عَلَى زَرْعِ الْأَرْضِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْبَابِ
الرَّاحَةِ وَالرِّخَاءِ ، وَيَأْتِنِسُ بَمَضُنَا بَعْضُ . وَسُرْعَانَ مَا تَمَّتِ الْأَلْفَةُ بَيْنَنَا
جَمِيعًا ، وَأَصْبَحْنَا أَصْفِيَاءَ مُتَحَابِّينَ .

وَقَدْ سَأَلْتُ أَبَا « جُمُعَةَ » ، ذَاتَ يَوْمٍ : « أَثَرَانَا^(١) فِي خَطَرٍ مِنْ



فَارِقِ أَعْدَائِنَا ، مَرَّةً

أُخْرَى ؟ » فَقَالَ لِي ،

فِي لَهْجَةِ الْحَازِمِ

الْمُسْتَيْقِنِ^(٢) : « كَلَّا ،

لَا سَبِيلَ إِلَى عَوْدَتِهِمْ

بَعْدَ هَذِهِ النُّكْبَةِ .

وَمَا أَحْسَبُهُمْ قَدْ نَجَوْا مِنْ

الْعَاصِفَةِ الَّتِي هَبَّتْ عَلَيْهِمْ ، فِي أَمْنَاءِ فِرَارِهِمْ . وَلَوْ أَنَّهُمْ نَجَوْا مِنْهَا ،

لَمَا وَجَدُوا مِنَ الشَّجَاعَةِ مَا يَخْفِزُهُمْ^(٣) إِلَى مُعَاوَدَةِ الْكَرَّةِ ؛

(١) أَتَعَبْنَا . (٢) الْمُتَّعِبُ . (٣) يَدْفَعُهُمْ .

فَقَدْ أَطَارَ دَوِيُّ الرَّمَاصِ عُقُولَهُمْ . وَسَيَقُصُّونَ عَلَى أَهْلِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ
مَا رَأَوْهُ مِنَ الصَّوَاعِقِ وَالرُّعُودِ الَّتِي أَفْنَتِ جَمَاعَةً مِنْ رِفَاهِهِمْ . وَلَقَدْ
سَمِعْتُ بَعْضَهُمْ يَتَحَدَّثُ - فِي أَثْنَاءِ فِرَارِهِ - وَهُوَ مَذْهُوشٌ مِمَّا رَأَى ،
وَقَدْ مَلَأَتْهُ الْحَيْرَةُ وَالْمَجَبُّ ؛ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَهْتَدِيَ إِلَى تَعْلِيلٍ يُفَسِّرُ
بِهِ قُدْرَةَ أَعْدَائِهِ عَلَى قَذْفِهِمْ بِالصَّوَاعِقِ ، وَتَسْخِيرِ الرُّعُودِ وَالْفَلَكَ^(١)
لِلْفَتَكِ بِمَنْ يُرِيدُونَ ، عَلَى مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ ، دُونَ عَنَاءٍ .

وَقَدْ صَدَقَ الشَّيْخُ فِي تَكْهِنِهِ وَحَدْسِهِ^(٢) ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ - فِيمَا بَعْدَ -
أَنَّ أَعْدَاءَنَا قَدْ أَذَاعُوا عَلَى بَنِي وَطَنِهِمْ - بَعْدَ أَنْ نَجَّوْا مِنَ الْغَرَقِ -
أَنْبَاءَ الصَّوَاعِقِ الَّتِي أَمْطَرْنَاهَا عَلَيْهِمْ ؛ فَمَلَّتُوا قُلُوبَهُمْ رُغْبًا ، وَآيَقَنُوا
أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَلُوءَةٌ جَنًّا وَعَفَارِيتَ ، فَلَمْ يَجْزُوا عَلَى الدُّؤُورِ مِنْهَا
بَعْدَ ذَلِكَ الْيَوْمِ . عَلَى أَنَّي تَأَهَّبْتُ لِنِصَالِهِمْ^(٣) ، وَتَرَقَّبْتُ عَوْدَتَهُمْ زَمَنًا
طَوِيلًا ، حَتَّى أَقْبَنْتُ بِأَنَّهُمْ يَنْسُوا مِنَ الْعَوْدَةِ . فَأَطْمَأْنَنْتُ نَفْسِي ،
وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى التَّفَكِيرِ فِي الْعَوْدَةِ إِلَى وَطَنِي . وَمَرَّتْ بِنَا سِنُونَ عِدَّةٌ ،
وَنَحْنُ آمِنُونَ وَادِعُونَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ الْعَازِبَةِ^(٤) . وَقَدْ سَهَّلَ عَلَيْنَا أَنْ

(١) استخدمهما وظهرهما . (٢) ظننه وتقديره . (٣) محاربتهم . (٤) البعيدة .

نُنَجِّزَ^(١) — مُتَمَاوِنِينَ — كُلَّ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

وَقَدْ عَلِمْتُ مِنَ الْإِسْبَانِيِّ أَنَّ عَدَدَ أَصْدِقَائِهِ — مِنَ الْإِسْبَانِيِّينَ الَّذِينَ نَجَّوْا مِنَ الْفَرْقِ — يَبْلُغُ سِتَّةَ عَشَرَ ، وَلَدَيْهِمْ كَثِيرٌ مِنَ الْبِنْدَقِيَّاتِ وَالْمُسَدَّسَاتِ ، وَلَيْسَ يُعَوِّزُهُمْ^(٢) إِلَّا الرِّصَاصُ وَالْبَارُودُ . وَقَدْ حَاولُوا الْمُودَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ ؛ فَأَعْوَزَتْهُمْ الْمَعْدَّاتُ ، فَأَقَامُوا فِي تِلْكَ الْبِلَادِ مُرْغَمِينَ^(٣) . فَسَأَلْتُهُ : « أَتُرَاهُمْ يُلبُّونَ^(٤) اقْتِرَاحِي ، إِذَا هَيَّأْتُ لَهُمْ أَسْبَابَ السَّفَرِ ؟ »

فَقَالَ لِي : « لَيْسَ أَشْهَى إِلَى نُفُوسِهِمْ مِنْ تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ . » وَاقْتَرَحَ عَلَيَّ أَنْ يَذْهَبَ مَعِيَ أَبِي « جُمُعَةً » لِمُقَابَلَتِهِمْ ؛ فَأَذِنْتُ لَهُ فِي ذَلِكَ ، بَعْدَ أَنْ أَقْسَمَ لِي : إِنَّهُ سَيَكُونُ — هُوَ وَرِفَاقُهُ — رَهْنًا لِإِشَارَتِي ، وَسَيَأْخُذُ عَلَيْهِمُ الْمَهْدَ بِالْوَفَاءِ لِي ، قَبْلَ أَنْ يُخْضِرَهُمْ إِلَى جَزِيرَتِي . وَبَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ ، رَكِبَ الْإِسْبَانِيُّ وَالشَّيْخُ زَوْرَقَ الْأَعْدَاءِ بَعْدَ أَنْ زَوَّدَتْهُمَا بِكُلِّ مَا يَخْتَاجَانِ إِلَيْهِ ، مِنْ طَعَامٍ وَسِلَاحٍ ، وَرَجَوْتُ لَهُمَا سَفَرًا سَعِيدًا وَعَوْدًا حَمِيدًا .

(١) نَم . (٢) لَا يَنْقُصُهُمْ . (٣) مَكْرَمِينَ . (٤) يَنْفِلُونَ .

الفصل الثامن

العودة إلى الوطن

١ - المفاجأة

ظَلِمْتُ أَتَرَقَّبُ عَوْدَةَ الشَّيْخِ وَالْإِسْپَانِيِّ ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ . ثُمَّ وَقَعَ لِي حَدِثٌ لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرُ لِي عَلَى بَالٍ . فَقَدْ اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمِي عَلَى صُرَاخٍ « جُمُعَةٌ » ، وَهُوَ يَصِيحُ وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ .

« سَيِّدِي ! سَيِّدِي ! لَقَدْ اقْتَرَبُوا مِنَّا . »

فَارْتَدَيْتُ يَتَابِي - مِنْ فَوْرِي - وَأَسْرَعْتُ نَحْوَ الشَّاطِئِ .
وَأَجَلْتُ لِحَاظِي فِي عُرْضِ الْبَحْرِ ، فَرَأَيْتُ زَوْزَقًا شِرَاعِيًّا مُيِّمًا^(١)
بِجَزِيرَتِنَا ؛ وَهُوَ عَلَى بُعْدِ مِيلٍ وَنِصْفِ مِيلٍ مِنْهَا . فَأَمَرْتُ « جُمُعَةٌ »
أَنْ يَتَرَيَّثَ^(٢) فِي الْأَمْرِ ، حَتَّى تَتَعَرَّفَ جَلِيَّتُهُ^(٣) . وَأَكْذْتُ لَهُ أَنْ
رَاكِبِي الزَّوْزَقِ لَيْسُوا أَصْحَابَنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا أَبَاهُ وَالْإِسْپَانِيَّ لِإِخْضَارِهِمْ ،

(١) قاصداً . (٢) يتعمل . (٣) حقيقتة .

وليس في قُدرتنا أن نعرف : أعداء لنا أم أصدقاء ؟

ثم أرتقيت^(١) قمة الجبل ، ورأيتُ — من خلال منظارى —
سفينة واقفة على مسافة ميلين ونصف ميل تقريباً . وقد عرفتُ
— من أسلوب بنائها — أنها سفينة من سفن بلادنا ؛ فأيقنتُ أن
خلاصى من الأسر قريب ، وفاض قلبى بشراً وسُروراً . ولما سكنتُ
شعرتُ — فى نفسى — بشيء من الانقباض يُنصُّ على هذا الفرح .
فقد توجَّستُ^(٢) شراً ؛ لأننى لم أستطع أن أعلل اقتراب مثل
هذه السفينة من تلك الجزيرة النائية ، على غير حاجة إلى المرور
بها . ورأيتُ — من الحزامة^(٣) وأصاله الرأى — أن أترى ؛ حتى
أتبين الحقيقة واضحة ، لا لبس فيها ولا غموض .

٢ — شكوى الرُّبان

ولما رسا الزورقُ عددتُ راكبيه ؛ فرأيتهم أحد عشر من بنى

(١) صعدت . (٢) أحست . (٣) الحكمة .

وَطَنِي ، وَرَأَيْتُ - مِنْ يَنِيهِمْ - ثَلَاثَةَ مَشْدُودِي الْوَتَاقِ . ثُمَّ قَفَزَ
خَمْسَةَ رِجَالٍ إِلَى الشَّاطِئِ يَقُودُونَ أَسْرَاهُمْ بِالْجِبَالِ ؛ فَلَمْ أَفْهَمْ شَيْئًا ،
وَلَمْ أَهْتَدِ إِلَى حَلِّ هَذَا اللَّغْزِ الْغَامِضِ .
فَقَالَ لِي خَادِمِي « جُمُعَةٌ » :

« لَا شَكَّ فِي أَنَّهُمْ سَيَأْكُلُونَ أَسْرَاهُمْ كَمَا يَفْعَلُ بَنُو وَطَنِنَا .
فَأَكْذَبْتُ لَهُ أَنَّ هَذَا لَنْ يَكُونَ ، وَلَنْ يَتَعَدَّى أَنْتِقَامُهُمْ مِنْ
أَسْرَاهُمْ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ ؛ أَمَّا أَنْ يَأْكُلُوهُمْ فَذَلِكَ مَا لَا يَدُورُ لَهُمْ بِخَلْدٍ ^(١) .
وَبَعْدَ قَلِيلٍ تَرَكَوا الْأَسْرَى فِي مَكَانِهِمْ ، ثُمَّ ذَهَبُوا يَجُوبُونَ
الْجَزِيرَةَ ^(٢) مُتَنَزِّهِينَ ، حَتَّى السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ الظُّهْرِ . فَوَقَفُوا
يَسْتَرِيحُونَ تَحْتَ أَشْجَارِ الْغَابَةِ ، بَعْدَ أَنْ أَشْتَدَّتْ حَمَارَةُ الْقَيْظِ ،
وَجَهَدَهُمْ ^(٣) الْحَرُّ ؛ فَانْطَرَحُوا عَلَى الْأَرْضِ ، وَأَسْتَسَامُوا لِلنَّوْمِ .
فَدَنَوْتُ مِنَ الْأَسْرَى ، وَسَأَلْتُهُمْ عَنْ مَصْدَرِ شَقَائِهِمْ ؛ فَارْتَعَدَتْ
فَرَائِصُهُمْ ^(٤) مِنْ رُؤْيَايَ . وَلَكِنِّي طَمَأَنْتُهُمْ حَتَّى مَرَّي عَنْهُمْ ^(٥) ، وَرَأَوْا
أَمَلًا كَبِيرًا فِي خَلَاصِهِمْ .
وَقَدْ قَالَ لِي أَحَدُهُمْ ، وَقَدْ بَشَّرْتِ ^(٦) عَيْنَاهُ بِاللُّمُوحِ :

(١) لَا يَمُرُّ بِمَقْلَهُمْ . (٢) يَجُولُونَ فِيهَا . (٣) اتَّبَعَهُمْ . (٤) فَزَعُوا .
(٥) ذَهَبَ خَوْفُهُمْ . (٦) أَمْلَأَتْ .

« أُنَا رُبَّانُ السَّفِينَةِ الَّتِي تُقِلُّ هَؤُلَاءِ الْمَلَّاحِينَ . وَقَدْ نَارَ عَلَى رِجَالِي وَتَمَرَّدُوا ، وَعَزَمُوا عَلَى أَنْ يَتْرَكُونِي فِي هَذِهِ الْجَزِيرَةِ الْعَازِبَةِ الْمُقْفِرَةِ ، مَعَ هَذَيْنِ الرَّفِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ أُيَّا^(١) أَنْ يَشْرَكَاهُمْ فِي تَمَرُّدِهِمْ وَعِصْيَانِهِمْ . »

٣ - النَّصْرُ

فَسَأَلَتْهُ : « أُنْمَاهِدُنِي عَلَى أَنْ تُقِلَّنِي وَصَاحِبِي « جُمُعَةٌ » فِي سَفِينَتِكَ ، إِذَا أَتَقَذْتُكَ مِنْ هَذِهِ الْوَرَطَةِ^(٢) ؟ »

فَقَالَ : « لَوْ تَمَّ ذَلِكَ ، لَأَصْبَحْتُ رَهْنًا إِشَارَتِكَ . »
فَرَسَمْنَا خُطَّةً بَارِعَةً لِلْقَبْضِ عَلَى الْعَصَاةِ ، وَالِاسْتِيلَاءِ عَلَى زَوَرَقِهِمْ .
وَقَدْ فَاجَأَنَاهُمْ وَهُمْ نَائِمُونَ ، وَأَوْهَمْتُهُمْ أَنَّ لَدَى جَيْشًا كَبِيرًا ؛ فَاضْطَرُّوا
أَكْثَرُهُمْ إِلَى الْإِذْوَاعِ^(٣) ، وَعَاهَدُونَا عَلَى الْإِخْلَاصِ .

ثُمَّ ذَهَبَ الرُّبَّانُ وَ « جُمُعَةٌ » وَرِفَاقُهُ إِلَى السَّفِينَةِ ، وَأَسْرَوْا
وَكَيْلَ الرُّبَّانِ وَمَنْ أَلْهَبَ مَعَهُ نَارَ الْفِتْنَةِ ، وَأَطْلَقُوا سَبْعَ طَلَقَاتٍ مِنْ

(١) امتنعا . (٢) إذا غلصتكَ من هذا المكان الذي يعرضكَ للهلاك . (٣) التسليم .

مِدْفِعِ السَّفِينَةِ إِعْلَانًا لِإِنتِصَارِهِمْ . فَلَمْ أَعُدْ أَتَمَالِكُ مِنَ الْفَرَجِ ،
وَلَمْ أَكْذُ أَصَدِّقُ مَا أَرَى ؛ فَأَرْتَمَيْتُ عَلَى فِرَاشِي ، وَأُسْتَسَلَمْتُ
لِنَوْمٍ عَمِيقٍ .



ثُمَّ جَاءَ الرَّبَّانُ
وَمَا تَقْنَى ، وَقَالَ لِي :
« إِنَّ السَّفِينَةَ
وَرُبَّانَهَا وَمَلَّاحِيهَا
لَيَسُودُ إِلَّا مِلْكُ يَدَيْكَ

وَطَوَّعَ إِشَارَتِكَ . » فَأَيْقَنْتُ - حِينَئِذٍ - بِالْخَلَّاصِ ، وَغَلَبَتِي الشُّرُورُ
عَلَى أَمْرِي ؛ فَلَمْ أُسْتَطِيعْ أَنْ أَنْبَسَ^(١) بِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ .
ثُمَّ أَفَقْتُ مِنْ ذُهُولِي وَدَهْشَتِي ، فَأَقْبَلْتُ عَلَى الرَّبَّانِ أَعَانِقُهُ وَأَشْكُرُ
لَهُ أَحْسَنَ الشُّكْرِ . وَقَدْ أَحْضَرَ لِي الرَّبَّانُ هَدَايَا فَخْرَةً ، وَأَطِيمَةً لَذِيذَةً ،
وَرِيَابًا جَمِيلَةً ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ التَّحَفِ وَالطَّرْفِ^(٢) .

(٢) الأشياء الغريبة الثمينة .

(١) أنطق .

٤ - مُعَدَّاتُ السَّفَرِ

وَلَمْ يَبْقَ عَلَيْنَا إِلَّا أَنْ نَتَأَهَّبَ لِلْسَّفَرِ . وَقَدْ أُسْتَقَرَّ رَأْيُنَا عَلَى تَرْكِ زُعْمَاءِ الثَّوَرَةِ مِنَ الْمَلَّاحِينَ فِي تِلْكَ الْجَزِيرَةِ ؛ حَتَّى لَا يُفْسِدُوا عَلَيْنَا أَمْرَنَا . وَقَدْ شَرَحْتُ لَهُمْ وَسَائِلَ الْعَيْشِ وَأَسَالِيبَ الْحَيَاةِ فِي تِلْكَ الْبِقَاعِ^(١) ، وَعَلَّمْتُهُمْ كَيْفَ يَصْنَعُونَ الْخُبْزَ ، وَكَيْفَ يَبْذُرُونَ وَيَحْصِدُونَ ، وَكَيْفَ يُجَفِّفُونَ الْعِنَبَ ، وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنَ الضَّرُورِيَّاتِ . ثُمَّ ذَكَرْتُ لَهُمْ أَنَّ سِتَّةَ عَشَرَ إِسْپَانِيًّا قَادِمُونَ عَلَيْهِمْ - بَعْدَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ - وَتَرَكْتُ مَعَهُمْ كِتَابًا لِإِلَهُمْ أُوصِيهِمْ بِهِمْ خَيْرًا . وَأَخَذْتُ عَلَيْهِمُ الْمَوَاقِيقَ وَالْمُعْهُودَ أَنْ يَمِيشُوا جَمِيعًا مُتَعَاوِنِينَ مُتَحَاطِينَ .

وَتَرَكْتُ لَهُمْ مَا كَانَ لَدَيَّ مِنْ سِلَاحٍ ، وَهُوَ خَمْسَةُ مُسَدَّسَاتٍ ، وَثَلَاثُ بُنْدُقِيَّاتٍ ، وَثَلَاثَةُ سُيُوفٍ ، كَمَا تَرَكْتُ لَهُمْ كُلَّ مَا بَقِيَ عِنْدِي مِنَ الْبَارُودِ وَالرَّصَاصِ . وَشَرَحْتُ لَهُمْ : كَيْفَ يَتَمَهَّدُونَ الْعِزْزَى ؟ وَكَيْفَ يَخْلُبُونَ لَبَنَهَا ؟ وَكَيْفَ يَصْنَعُونَ مِنْهُ الزُّبْدَ وَالْجُبْنَ ؟

(١) الأراضى .

هـ - فِي أَرْضِ الْوَطَنِ

وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي ، وَدَعَتْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ النَّائِيَةَ ، وَأَخَذْتُ مَعِيَ
قَلَنْسُوتِي - وَهِيَ مِنْ جِلْدٍ مَاعِزٍ ، كَمَا عَلِمَ الْقَارِئُ - وَمِظْلَتِي وَبِغَايِي .
وَأَخَذْتُ مَا كَانَ



عِنْدِي مِنَ النُّقُودِ ،
وَقَدْ عَلَاهَا الصَّدَأُ
لِطَوْلِ اخْتِجَابِهَا فِي
أَمْنَاءِ هَذِهِ الْأَغْوَامِ .
مِمَّ أَقْلَمْتُ بِنَا
السَّفِينَةَ فِي التَّاسِعِ
عَشَرَ مِنْ « دَيْسَمْبَر » -
حَامَ ١٦٨٦ م بِمَدَّ أَنْ
كَبِثْتُ فِي هَذِهِ
الْجَزِيرَةِ ثَمَانِيَةَ

وعِشْرِينَ عَامًا وَشَهْرَيْنِ وَتِسْعَةَ عَشَرَ يَوْمًا . وَقَدْ فَرِحَ « جُنَّةُ »
بِمُرَاقَبَتِي إِلَى بِلَادِي ، وَآثَرَ صُحْبَتِي ^(١) عَلَى كُلِّ شَيْءٍ .
وَمِنْ عَجِيبِ الْمُصَادَفَاتِ أَنَّ يَوْمَ خَلَاصِي مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ وَ
يَوْمَ خَلَاصِي مِنَ الْأَسْرِ فِي رِحْلَتِي السَّابِقَةِ ، الَّتِي عَرَفَهَا الْقَارِئُ الْقَزِي
وَفِي الْيَوْمِ الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ « يُنْيَة » عَامَ ١٦٨٧ م وَصَلْتُ
إِلَى « لَنْدَن » بَعْدَ أَنْ غِبْتُ عَنْهَا خَمْسَةَ وَثَلَاثِينَ عَامًا .

٦ - السَّفَرُ إِلَى « لِسْبُونَة »

وَرَأَيْتُنِي غَرِيبًا فِي بِلَادِي ، وَوَجَدْتُ وَالِدِيَّ قَدْ مَاتَ مُنْذُ زَمَرٍ
طَوِيلٍ ، وَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْرِفُنِي مِنْ رِفَاقِ الْقَدَمَاءِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ
إِلَى « لِسْبُونَة » ، لِأَتَعَرَّفَ وَسِيلَةً إِلَى الْإِسْتِفْسَارِ عَمَّا آَلَتْ إِلَيَّ
دَسْكَرَتِي ^(٢) ، فِي « الْبَرَاذِيلِ » . وَقَدْ عَجَّلْتُ بِالسَّفَرِ إِلَى « لِسْبُونَة »
- وَمَعِيَ « جُنَّةُ » - فَبَلَغْنَاهَا فِي « أَبْرِيل » .

وَعَثَرْتُ - لِحُسْنِ حَظِّي - عَلَى رُبَّانِ السَّفِينَةِ الَّتِي أَتَقَدَّنِي فِي رِحْلَتِي
الْأُولَى حِينَ فَرَرْتُ مِنَ الْأَسْرِ ، وَكَانَ قَدْ شَاخَ وَتَرَكَ سَفِينَتَهُ لِوَلَدِهِ

(١) اختار أن يلازمي . (٢) قريبي .

فَذَكَرْتُهُ بِقِصَّتِي ، وَسَأَلْتُهُ عَنْ دَسْكَرَتِي فِي « الْبَرَاذِيلِ » ؛ فَأَخْبَرَنِي أَنَّهُ لَمْ يَذْهَبْ إِلَيْهَا مُنْذُ تِسْعِ سَنَوَاتٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَأَلُ جُهْدًا فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ إِلَى شُرَكَائِي ، حَتَّى ظَفِرَ - بَعْدَ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ - بِنَصِيبِي مِنَ الْمَالِ وَالْبَضَائِعِ ؛ فَأَرَبْتُ^(١) ثَرَوَتِي عَلَى خَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْجَنِينَاتِ . وَقَدْ ضَمِنْتُ بِذَلِكَ رَيْعًا سَنَوِيًّا - مِنْ ضَيَعَتِي بِالْبَرَاذِيلِ - لَا يَقِلُّ عَنْ أَلْفِ جُنَيْهِ ؛ فَأَجَزَلْتُ مُكَافَأَةَ الرُّبَّانِ الْمُحْسِنِ ، اعْتِرَافًا بِفَضْلِهِ عَلَيَّ ، وَصَنِيعِهِ الَّذِي أَسْلَفَهُ إِلَيَّ .

وَبَقِيَتْ عِدَّةُ أَشْهُرٍ حَائِرًا مُضْطَرِبًا ، لَا أَذْرِي : إِلَى أَيِّ بَلَدٍ أَقْصِدُ ؟ ثُمَّ اسْتَقَرَّ عَزَمِي عَلَى السَّفَرِ إِلَى « إِنْجِلْتِرَا » .

خاتمة القصة

أَهْوَالُ الْبَرِّ

١ - السَّفَرُ إِلَى « مَدْرِيْدَ »

وَبَقِيْتُ مُتَرَدِّدًا فِي الطَّرِيقِ الَّتِي أَتَخَيَّرْتُ سُلُوكَهَا ، وَشَعَرْتُ بِخَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ ، بَعْدَ مَا لَقِيْتُهُ مِنَ الْأَخْطَارِ وَالْمَتَاعِبِ . وَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ السَّفَرَ فِي الْبَرِّ آمَنُ مِنْهُ فِي الْبَحْرِ ؛ فَعَزَمْتُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى « مَدْرِيْدَ » ، بِحَيْثُ أَجْتَازُ طَرِيقَ الْبَرِّ إِلَى « فَرَنْسَا » ، ثُمَّ لَا يَبْقَى عَلَيَّ إِلَّا مَسَافَةٌ قَصِيرَةٌ أَعْبُرُهَا - فِي الْبَحْرِ - يَتَيْنَ « كَالِيَه » وَ « دُوَثَرَ » .

وَقَدْ وَفَّقْتُ إِلَى رِفَاقِ يَصْحَبُونِي فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ الطَّوِيلَةِ - وَكَانَ عَدَدُهُمْ سِتَّةً مِنَ السَّادَةِ ، وَخَمْسَةً مِنَ الْخَدَمِ - حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى « مَدْرِيْدَ » .

٢ - الذئبان

وَقَدْ اضْطَرَرْنَا إِلَى مُنَادَرَةِ « مَدْرِيدَ » لِقُرْبِ حُلُولِ الشَّتَاءِ .
 وَعَلِمْنَا أَنَّ الطَّرِيقَ - الَّتِي أَرْمَعْنَا^(١) اجْتِيَازَهَا - خَطَرَةٌ فِي هَذَا
 الْفَصْلِ . وَقَدْ كَانَ الشَّتَاءُ قَاسِيَ الْبُرُودَةِ ، وَرَأَيْنَا الثَّلُوجَ تَغْطِي الْجِبَالَ ؛
 فَتَدِمْنَا عَلَى مُخَاطَرَتِنَا بِالسَّفَرِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ الْمَشْتُومِ .
 وَكَانَ مَعَنَا دَلِيلٌ ذَكِيٌّ شَجَاعٌ . وَمَازِلْنَا سَائِرِينَ - عِدَّةَ أَيَّامٍ -
 حَتَّى قَطَعْنَا مَرَجَلَةً كَبِيرَةً فِي دِخْلَتِنَا الْمُضْنِيَّةِ^(٢) .



وَكَانَ الدَّلِيلُ
 يَتَقَدَّمُنَا أَحْيَانًا ، ثُمَّ
 يَمُودُ إِلَيْنَا لِيُرْشِدَنَا
 إِلَى الطَّرِيقِ .
 وَفِي ذَاتِ مَرَّةٍ ،
 بَمَسَا عَنَّا
 - كَمَا دَتِهِ - فَانْقَضَ

(١) قَرَرْنَا . (٢) الْمَضْنِيَّةُ الشَّامَةُ .

عَلَيْهِ ذُبَانٌ . وَرَأَى الدَّلِيلُ هَلَاكَهُ مُحَقَّقًا وَشَيْكَا ؛ فَصَرَخَ مِنَ الْفَزَعِ ،
فَأَذْرَكَهُ « جُمُعَةٌ » ، وَأَطْلَقَ رِصَاضَهُ عَلَى أَحَدِ الدُّبَّيْنِ ، فَقَتَلَهُ قَبْلَ أَنْ
يَفْتَرِسَ الدَّلِيلَ . وَفَرَّ الدُّبُّ الْآخَرُ هَارِبًا حِينَ رَأَى مَصْرَعَ أَخِيهِ .

٣ - الدُّبُّ



ثُمَّ رَأَى « جُمُعَةٌ » دُبًّا
هَائِلَ الْجِرْمِ ^(١) مُقْبِلًا
عَلَيْهِ ؛ فَاشْتَدَّ رُعْبُنَا .
وَلَكِنَّ « جُمُعَةٌ »
سَخِرَ مِنْهُ ^(٢) ،
وظَهَرَتْ عَلَى وَجْهِهِ
أَمَارَاتُ الْغَبْطَةِ ^(٣) .
بِمُصَارَعَةِ الدُّبِّ .
ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى قَائِلَا :
« أَرْجُو أَلَّا

(١) الجسم . (٢) هزى به . (٣) علامات الفرح .

تُسْكِرُوا عَلَيَّ صَفَائِي ؛ فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أُدَاعِبَ هَذَا الدُّبَّ ، لِأَسْرَى عَنْكُمْ قَلِيلًا . فَحَذَارِ أَنْ تُطْلِقُوا عَلَيْهِ الرِّصَاصَ . »

ثُمَّ قَذَفَهُ « جُمُعَةٌ » بِحَجَرٍ فِي رَأْسِهِ ، فَجَرَسَ الدُّبُّ مُسْرِعًا إِلَيْهِ فَصَعِدَ « جُمُعَةٌ » شَجَرَةً عَالِيَةً ، فَوَقَفَ الدُّبُّ تَحْتَهَا قَلِيلًا ، ثُمَّ تَسَلَّقَهَا ^(١) . فَأَمْسَكَ « جُمُعَةٌ » بِأَحَدِ أَغْصَانِ الشَّجَرَةِ ، وَظَلَّ يَهْزُ النُّصْنَ هَزًّا عَنِيفًا ، وَهُوَ سَاخِرٌ مِنْ حَيَرَةِ الدُّبِّ ، الَّذِي ظَلَّ يَتَرَجَّحُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ . ثُمَّ صَوَّبَ « جُمُعَةٌ » رِصَاصَةً إِلَى أُذُنِ الدُّبِّ — بَعْدَ أَنْ أَرَقَصَهُ طَوِيلًا — فَقَتَلَهُ . وَقَدْ أَضْحَكْنَا كَثِيرًا .

٤ — لَيْلَةٌ هَائِلَةٌ

وَرَأَيْنَا اللَّيْلَ يَقْتَرِبُ ، وَالنَّهَارَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقُضِيَ . فَضَاعَفْنَا السَّيْرَ مُسْرِعِينَ ؛ لِنَجْتَازَ الْمَسَافَةَ الْقَلِيلَةَ الْبَاقِيَةَ عَلَيْنَا فِي تِلْكَ الْأَوْدِيَةِ الْمُخِيفَةِ الْمُفْرَعَةِ . وَمَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ حَتَّى مَرَّتْ بِنَا خَمْسَةُ ذُنَابٍ ؛ فَلَمْ نَأْبَهُ لَهَا ^(٢) . وَكُنَّا مُتَحَفِّزِينَ ^(٣) — فِي كُلِّ لَحْظَةٍ — لِمُدَافَعَةِ الذُّنَابِ

(١) صعدنا . (٢) لم نهم بها . (٣) مستعدين .

الكثيرة ، التي سَتَعَرَّضْنَا فِي الطَّرِيقِ ، كَمَا أَخْبَرَنَا الدَّلِيلُ .
وَمَا تَقَدَّمْنَا نَعْمَفَ فَرَسِيخٍ ^(١) بَعْدَ ذَلِكَ ، حَتَّى رَأَيْنَا ذُنَابًا كَثِيرَةً تَنْهَشُ
لَحْمَ جَوَادٍ مَيِّتٍ ، وَقَدْ مَرَّقَتْهُ تَمَرِيْقًا .

* * *



وَلَمْ نَجْتَزْ مَرَحَلَةً
قَصِيرَةً أُخْرَى ،
حَتَّى مَلَأَتِ الذُّنَابُ
الْجَوَّ بِعُورِهَا . وَرَأَيْنَا
أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ
ذَيْبٍ تَكْتَنِفُنَا ^(٢) ،

مُتَحَفِّزَةً لِلْمُؤُوبِ عَلَيْنَا ، وَافْتَكَّ بِنَا . فَأَاطَلَقْنَا عَلَيْهَا الرِّصَاصَ ، وَصَرَخْنَا
صَرَخَاتٍ عَالِيَةً لِنُخِيفَهَا .
فَوَلَّتِ الذُّنَابُ هَارِبَةً .

* * *

وَلَمَّا قَطَعْنَا مَرَحَلَةً أُخْرَى ، أَحَاطَتْ بِنَا قُطْعَانُ كَبِيرَةٌ ، وَسَمِعْنَا

(١) نحو أربعة من الكيلومترات .

(٢) تحيط بنا

صَوْتِ رَصَاصَةٍ بِالقُرْبِ مِنَّا ، وَرَأَيْنَا جَوَادًا يُسَابِقُ الرِّيحَ ، وَتَمَدُّو فِي
إِثْرِهِ جَمَهْرَةٌ مِنَ الذَّنَابِ ؛ فَعَلِمْنَا أَنَّ مَا لَكَ^(١) الْمَوْتُ الْوَشِيكَ .
وَمَا سِرْنَا خُطَوَاتِ قَلِيلَةٍ ، حَتَّى رَأَيْنَا جُثَّةَ جَوَادٍ آخَرَ قَطَعَتْهَا الذَّنَابُ



إِزْبَا^(٢) ، وَإِلَى جَانِبِهَا جُمْتُ فَارِسَيْنِ ، لَمْ تُبْقِ مِنْهُمَا الذَّنَابُ إِلَّا
الْعِظَامَ . فَعَلِمْنَا أَنَّ أَحَدَهُمَا هُوَ الَّذِي أَطْلَقَ الرِّصَاصَةَ الَّتِي سَمِعْنَا دَوِيَّهَا
مُنْذُ حِينٍ .

وإِنَّا لَحَائِرُونَ مَذْمُورُونَ مِنْ هَذَا الْمَنْظَرِ الْمَفْزَعِ الْهَائِلِ ، إِذْ أَقْبَلَ

(١) مصيره . (٢) قطعة قطعة .

عَلَيْنَا — مِنْ أَسْرَابِ الذَّنَابِ — مَا لَا قِبَلَ لَنَا بِمُقَاوَمَتِهِ . فَقَدْ
 اكْتَتَفْنَا نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ ذَنْبٍ ؛ فَاعْتَصَمْنَا^(١) بِأَشْجَارٍ قَرِيبَةٍ .
 وَبَعْدَ أَنْ تَرَجَّلْنَا ، ظَلَلْنَا نَطْلُقُ عَلَيْهَا الرِّصَاصَ ؛ فَتَرَاجَعْتُ ، ثُمَّ كَرَّتُ
 عَلَيْنَا كَرَّةً أُخْرَى . وَمَا زِلْنَا نُحَارِبُهَا مُسْتَبْسِلِينَ ، حَتَّى قَتَلْنَا مِنْهَا نَحْوَ
 سِتِّينَ ذَنْبًا ، وَكَسَبْنَا الْمَعْرَكَةَ — بَعْدَ جِهَادٍ عَنِيفٍ — وَانْتَصَرْنَا عَلَى
 الذَّنَابِ ، بِأَعْجُوبَةٍ لَا مَثِيلَ لَهَا فِي الْأَعَاجِبِ .

٥ — خَاتِمَةُ الرَّحَلَةِ

ثُمَّ قَطَعْنَا الْمَرْحَلَةَ الْبَاقِيَةَ مُسْرِعِينَ ، حَتَّى وَصَلْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ،
 حَيْثُ أَتَمَمْنَا رِحْلَتَنَا — بَعْدَ ذَلِكَ — آمِنِينَ .
 وَمَا أَنَسَ لَا أَنَسَ — مَا حَيِّتُ — هَذِهِ الرَّحَلَةُ الْبَرِّيَّةَ الْمُخِيفَةَ
 الَّتِي أَنَسْتَنِي أَهْوَالُهَا أَهْوَالَ الْبَحْرِ .
 وَقَدْ آلَيْتُ^(٢) عَلَى نَفْسِي أَنْ أَقْضِيَ الْبَقِيَّةَ الْبَاقِيَةَ مِنْ عُمْرِي فِي
 دَعَا^(٣) وَاطْمِئْنَانٍ ، وَأَمْنٍ وَسَلَامٍ .

القصة التالية : « جلفرقى بلاد الأقزام »

(١) لمانا . (٢) حلفت . (٣) راحة .

١٩٩٢/٨٥٩٥	رقم الإيداع
ISBN 977-02-3838-4	الترقيم الدولي

١/٩٢/١٢٥

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

مكتبة الإسكندرية

مكتبة الأطفال

بِقِطْعَةٍ
كَلَامِيَّةٍ بَدَوِيَّةٍ

أَسَاطِيرُ الْعَالَمِ

- ١ الملك ميداس . ٢ في بلاد المعجائب .
- ٣ القصر الهندي . ٤ قصاص الأثر .
- ٥ بطل أتينا . ٦ الفيل الأبيض .

قِصَصٌ عِلْمِيَّةٌ

- ١ أصدقاء الربيع . ٢ زهرة البرسيم .
- ٣ في الاصطبل . ٤ جبارة الغاية .
- ٥ أسرة السناجيب . ٦ أم سند وأم هند .
- ٧ الصديقتان . ٨ أم مازن .
- ٩ العنكب الحزين . ١٠ النحلة العاملة .

أَشْرَقُ الْقِصَصِ

- ١ جلفر في بلاد الأقزام .
- ٢ في بلاد المعلقة .
- ٣ في الجزيرة الطيارة .
- ٤ في جزيرة الجياد .
- ٥ روبنسن كروزو .

قِصَصٌ عَرَبِيَّةٌ

- ١ حى بن يقطان . ٢ ابن

قِصَصٌ تَمَثِّلُ

- ١ الملك النجار .

قِصَصٌ فُكَاهِيَّةٌ

- ١ عمارة . ٢ الأرنب الذكي .
- ٣ عفاريت اللصوص . ٤ نعمان .
- ٥ العرندس . ٦ أبو الحسن .
- ٧ حذاء الطنبورى . ٨ بنت الصباغ .

قِصَصٌ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ

- ١ بابا عبد الله والدرويش .
- ٢ أبو صير وأبو قير . ٣ على بابا .
- ٤ عبد الله البرى وعبد الله البحرى .
- ٥ الملك عجيب . ٦ خسرو شاه .
- ٧ السندباد البحرى . ٨ علاء الدين .
- ٩ تاجر بغداد . ١٠ مدينة النحاس .

قِصَصٌ هِنْدِيَّةٌ

- ١ الشيخ الهندي . ٢ الوزير السجين .
- ٣ الأسيرة القاسية . ٤ خاتم الذكرى .
- ٥ شبكة الموت . ٦ في غابة الشياطين .
- ٧ صراع الأخوين .

قِصَصٌ شَكْبَرِيَّةٌ

- ١ الماصفة . ٢ تاجر البندقية .
- ٣ يوليوس قيصر . ٤ الملك لير .

Bibliotheca Alexandrina



0287580

مكتبة الإسكندرية
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA



دار المعارف

٥٥٥٠